

**الأحرف الوظيفية في  
القرآن الكريم**



دكتور  
صلاح شفيق

# الأحرف الوظيفية

دراسة في الوظيفة الدلالية  
لبعض الأحرف القرآنية

٢٠٢٣

مكتبة بلومانيا



## الإهداء

إلى : رفيقة العمر ..

أشعر أن اللغة العبقريّة التي ندين كلنا بالفضل إليها  
مدينة لك بالشكر ..  
طبّت نفساً .. أيتها الطيبة ..  
كل الشكر على تلك الحياة الرائعة التي وفرتها لي ..

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا

# مقدمة

كما تدين اللغة الإنكليزية إلى العبقري شكسبير بالكثير لأنه أخرج ما فيها من مكنونات ، كذلك تدين اللغة العربية بالفضل لعباقرة من مستخدميها أخرجوا مكنوناتها ، وكشفوا عن نظامها ، لكن يظل الدين الأكبر للقرآن الكريم ، فهي تدين له بكل الفضل لأنه المستعمل الأبرز الذي لم يترك مكنوناً فيها إلا وأخرجه ، ولا تعبيراً لغوياً إلا قننه بشكل محكم ، وما كان الله عز وجل ليستخدم لغة تتصف بالتناقض أو الفوضى ، لذلك لم يكتف بإخراج مكنونات العربية فحسب ، بل كشف عن علميتها ، وهندسة نظامها ، ولن يأتي للغة أخرى تلك الميزة أن يكون المستخدم الكاشف هورب العزة فيخرج كل قوانينها .

ولم يترك جوازاً تسمح به اللغة إلا ووضع له تقعيدياً ، ليصبح لكل من الاتجاهين المشروعين تقنيه الخاص ، فلا تكون هناك فوضى لغوية ، فالهندسة اللغوية الكامنة في اللغة العربية ترجع إلى استخدام القرآن الكريم لها .

فإن كانت العربية تجيز التذكير والتأنيث مع جمع التكسير وما يشابهه ، فإن القرآن الذي لا يصلح معه الجواز ، لأنه متموضع ، لا يجوز معه إلا ما استخدمه ؛ مما يعنى عدم إمكانية استعمال ما تجيزه اللغة ؛ لذلك وجدنا القرآن الكريم يقنن

الجواز ليجعله قانوناً : فإن كانت العربية تجيز التذكير والتأنيث مع جمع التكسير وما يلحقه ، فالقرآن يقن متى التذكير ومتى التأنيث ؟ فيعتمد أن الجمع ينقسم إلى قسمين : كثرة وقلة ، والكثرة في العربية للتأنيث فهنا يقن القرآن قاعدة جواز التذكير والتأنيث للجمع فيجعلها قانوناً صارماً هو : كل جمع كثير واجب التأنيث ، وكل جمع قليل واجب التذكير ؛ ليصبح الأمر مُقَعَّداً ، فتقول : ( قال نسوة ) لأن النسوة قليلة ، وتقول ( قالت الإعراب ) لأنهم كثير ، وتقول : { وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ } <sup>(١)</sup> إن كنت تقصد الجميع ، وتقول { فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ جَاءُوا بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ } <sup>(٢)</sup> إن كنت تقصد بعض الرسل ، والدليل على القلة وصفهم بما يخصصهم ، وليس كل الرسل جاءوا بكتب .

وفي استعمال الأعداد ، قد يبدو من الوهلة الأولى أنه لا فارق بين قولنا : ( ثلاثة رجال ) ، و ( رجال ثلاثة ) ، لكن مع القرآن يجب أن تعلم أنك لا تستطيع التبديل بين الاستعمالين مما يعني أن لكل استعمال موضعه ، وهكذا نعرف تقنين ذلك من الاستعمال القرآن ، أو قل القانون الداخلي له : فالعدد إذا كان في مكانه المعتاد قبل المعدود فذلك لأنه كان يحتمل أن يكون غيره ، أما إذا جاء العدد بعد معدود فهذا يفيد انعدام أي احتمال آخر ، ليس إلا هذا العدد المذكور ، ولا مجال أن يكون غيره ، وانظر إلى قوله تعالى : { وَكُنْتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً } <sup>(٣)</sup> من المستحيل أن يكون سكان أهل الجنة والنار أكثر من ذلك أو أقل ، ليسوا إلا ثلاثة هم : أهل الجنة السابقون ، وأهم اليمين ، وأهل المشأمة ، فكل احتمال غير العدد المذكور منعدم ، لهذا ورد العدد بعد المعدود لانعدام الاحتمالات الأخرى . بينما يقول : { سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَتَمَنِيَةً أَيَّامٍ حُسُومًا } <sup>(٤)</sup> لأنه كان يمكن أن يجعلها أكثر من ذلك أو أقل ، ولأن

(١) سورة الأنعام . الآية (٣٤)

(٢) سورة آل عمران . الآية (١٨٤)

(٣) سورة الواقعة . الآية (٧)

(٤) سورة الحاقة . الآية (٧)

الاحتمالات الأخرى كانت متاحة ذكر العدد أولاً ؛ فهكذا كان فضل القرآن الكريم على اللغة لأنه خير المستعملين ، فأبان قدراتها ، وجعل كل استعمالاتها مقننة .

لم تكن تلك النعمة الوحيدة ، فلو نزل القرآن عربياً وتدخلت فيه يد البشر ، لربما لم تستطع أن تعرف القوانين التي تحكم الاستعمال اللغوي ، وإن وصلت إلى القانون فقد يكون غير صحيح لأن الاستعمال محرف عن مواضعه ، فالنعمة هنا لها وجهان : نزول القرآن الكريم بالعربية ، وفي الوقت نفسه تعهد الله بحفظه بخلاف الكتب السماوية الأخرى التي تركها لأهلها يحفظونها كما جاء في سورة المائدة : { إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءً }<sup>(١)</sup> .

بينما قال في شأن القرآن الكريم فقال في سورة الحجر: { إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ }<sup>(٢)</sup> ، وقد أثرت قضية ما المقصود بالذكر في الآية السابقة ؟ وهل هو القرآن الكريم فحسب أم الكتب السابقة ؟ ولاشك أن كلمة الذكر وإن جاءت في القرآن الكريم يقصد بها الكتب الأخرى غير القرآن الكريم كما في قوله تعالى : { فَسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ }<sup>(٣)</sup> إلا أنه في آية الوعد بالحفظ بالذكر في عقيدة المسلمين ليس إلا القرآن الكريم لسابق دمع أصحاب الذكر في الكتب السابقة بالتحريف : { مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ }<sup>(٤)</sup> ، وقد تكرر ذلك في سورة النساء<sup>(٥)</sup> .

وقد حاورني رجل من أهل الكتاب فقال لي : لماذا تتهمون كتبنا بالتحريف وقد جاء في كتابكم : { إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ }<sup>(٦)</sup> ، فقلت له : الذكر هنا

(١) سورة المائدة . الآية (٤٤)

(٢) سورة الحجر . الآية (٩)

(٣) سورة الأنبياء . الآية (٧) . سورة النحل . الآية (٤٣) .

(٤) سورة المائدة . الآيتان (١٣) . (٤١)

(٥) سورة النساء . الآية (٤٦)

(٦) سورة الحجر . الآية (٩)

القرآن الكريم ، قال : لكن الذكر في كتابكم يقصد الكتب الأخرى أيضًا ، وكنت أعلم أنني لو قلتُ له : لا تستشهد بكتابنا على حفظ كتبكم لأنه هو نفسه من وصفها بالتحريف ، فإن كنتُ تستند على أن كتبكم محفوظة بما ذكره القرآن فالقرآن هو نفسه الذي ذكر التحريف في كتبكم ، سينتقل لي إلى القضية التي يريدنا ، لأنه لا يريد حقًا الاستشهاد بالقرآن على حفظ كتابهم ، فلو كان يؤمن بصدق القرآن لآمن به ، لكنه يريد مني أن أقول له : فالقرآن الذي تستشهد به هو نفسه من قال عن كتبكم بالتحريف ، ليقول لي : إذن قرآنكم متناقض ، لأنه يقول عن حفظه للذكر الذي يشمل كتابنا ثم يتهم كتابنا بالتحريف ، فكيف تم تحريفه وقد وعد بحفظه ؟

لذلك لم أقل له ذلك ، لكنني قلتُ مرة أخرى : الذكر هنا خاص بالقرآن الكريم فحسب ، ولا تقل لي : الذكر جاء في آيات أخرى يقصد بها كتبكم ، لأنني أقصد الذكر في هذه الآية خاص بالقرآن الكريم ، لأن الذكر في تلك الآية بشكل خاص هو الذكر ذي التنزيل ، وليس الذكر بشكل عام ، فقد ورد في تلك الآية مصحوبًا بالفعل (نَزَّلْنَا) والكتب السماوية كآلآتي : التوراة والإنجيل أنزلت أي مرة واحدة ، أما القرآن الكريم فأنزل من السماء للسماء في ليلة مباركة هي ليلة القدر مرة واحدة ، ثم قام جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ بتنزيله على محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ منجمًا على مدى ثلاث وعشرين سنة ، فالقرآن إذن جمع شكلي النزول : الإنزال (مرة واحدة) ، والتنزيل (على مراحل) بينما الكتب الأخرى أنزلت مرة واحدة ، فلو قال : إنا نحن أنزلنا الذكر لكان يقصد الكتب كلها كما أراد محاورني أن يستشهد ، لكنه لم يقل ذلك ، بل قال (نَزَّلْنَا الذِّكْرَ) والوحيد في الكتب السماوية التي نزل بتلك الطريق (التنزيل) هو القرآن الكريم ، بينما الكتب الأخرى تمت بطريقة الإنزال.

فلم تكن النعمة في إنزال القرآن الكريم عربيًا فحسب ، لكن أيضًا بحفظ الله له ليظل إلى الأبد كما أنزله الله ، فيمكنك أن تستخرج القوانين وأنت مطمئن أن

تلك القوانين لم يعبث بها ،

ولأنه المستخدم الأمثل للغة العربية الذي استعمل اللغة في كل تعبيراته بشكلها الدقيق المحكم دعا مستخدمي اللغة العربية بأن يأتوا بسورة من مثله ، وهو مستوثق أنهم لن يفعلوا ، وقد وجدت محاولة للاستجابة لذلك التحدي ، لكن من خلال استعمال تراكيب قرآنية ، وتضفير تلك التراكيب لصنع سورة ، فهو يستعمل مادة القرآن الكريم المحكمة في صنع نص محكم يتحدى القرآن ، ولا يكون أمامنا سوى السكوت عن تغليط المحاولة لأن تغليط تركيباتها وهي في الأصل تراكيب قرآنية يعني تغليط القرآن ، لكن العجيب أنني لما درست تلك المحاولة في كتابي : ليس هكذا القرآن يا هذا <sup>(١)</sup> ، وجدت أمراً عجيباً ، إن كل كلمة مما استخدمها المتحدي كانت خاطئة بلا استثناء ، بينما هي في مكانها في القرآن في قمة الأحكام ، أي أن تلك الكلمات في القرآن تتسم بالحياة ، فإذا نقلت من مكانها إلى تربة غريبة يحولها من أشجار مثمرة إلى جذوع نخل خاوية .

إن اللغة العربية مدينة للقرآن الكريم ، لأن اللغة بقدرات مستخدميها ، فلماً تهيأ للغة ذلك الحظ العظيم بأن يقع عليها اختيار رب العزة لتكون اللغة التي يستخدمها ، فقد تهيأ لها أعظم المستخدمين ، ومن ثم كان الكتاب منجم ذهب لهذه اللغة ، فقد أخرج المستخدم الأكبر منها كل إمكاناتها ، وبذلك كشف لنا كنوز العربية وأوقفنا على قوانين في العربية ما كنا لنستطيع أن نصل إليها .

ولو أن العلماء انشغلوا بالتنقيب عن تلك القوانين لكان خيراً لنا من انشغالهم بمحاولة إثبات أن القرآني عربي ، وما حاجتنا إلى إثبات ما هو مثبت ، وإذن لوصلوا بالدليل إلى أن تلك اللغة لغة علمية لا فوضى فيها ، عاقلة تخلو من التناقض ، هندسية تحكمها روابط صارمة .

(١) صلاح شفيق . ليس هكذا القرآن يا هذا . دار الإيمان . الاسكندرية . ٢٠١١ .

وبهذا المنطلق لم أعد أتقبل قولهم : يجوز في العربية هذا الوجه وذلك ، بل أصبحت أقول : فمتي يجوز هذا ؟ ومتى يجوز ذلك ؟ لأن ترك الأمر على عواهنه يعني أن تستعمل التعبير الجائز حسبما اتفق ، وتلك فوضى لغوية لا تستقيم مع علمية اللغة ، بل يجب عند إباحة التصريح من وجوب تقنين التصريح ، فيكون لكل فرع من الفرعين المباحين وقتاً أو مسلكاً ثابتاً لا يستخدمه إلا في هذا المسلك .

في أكثر من مرة أجد متحدثين يقولون بعدم قداسة اللغة العربية ، ولا أحجر على أحد فيما يقول ، لكن ما كان يدفعني إلى الاستغراب هو أن الأمر لم يكن مستدعياً للقول بقداستها أو عدم قداستها ، فنحن نكون في مناقشة موضوع ، ثم أجد تلك القضية مقتحمة ، وصاحب الرأي يقرر رأيه كأنه الحقيقة ، معللاً ذلك بأن أصحاب من يقولون : اللغة العربية مقدسة ، يستندون إلى أنها لغة المقدس أي القرآن الكريم ، ويرد عليهم بالقول : بأن تلك اللغة التي كتبت المقدس ، هي نفسها التي يكتب بها شعر المجون ، وروايات الانحطاط والاستخذاء .

ولأني أرى أن القضية مقحمة من البداية ، فلا مبرر لها ، والإقحام يكفي لأن تتوخى الحذر في قبول الكلام ، ثم منهج المتحدث ، وهو ضرب دليل المقابلين ، هنا تقول : إن نفي دليل الآخر لا يعني صحة موقفك ، بل لعله عجز الآخر أن يقدم أدلة صحيحة لموقفه الذي قد يكون صحيحاً ، فلا يجعل رأيك صحيحاً إلا أن تقدم أدلة أنت على صحة موقفك .

ووجدتني آخذ ضدية الرأي ، لعلي لا أستطيع أن أثبت قداسة اللغة العربية ، لكنني أصبحت ضد القطع بنفي قداستها ، وقلت وقتها للقاتل : إن استخدام اللغة العربية بطريقة ماجنة أو رواية منحطة لا يمنع قداستها ، تماماً كما لا يفض من حلة الضابط أن يستعملها لص !

إن الكلمات مجرد قوالب طوب ، يستخدمها الجميع ، لكن ما الذي يجعل المتنبئ

هذا الشاعر العظيم في مقابل آخر يستخدم المادة نفسها ربما ببلاهة ، إن منكر قداسة اللغة العربية التي كشفها لنا القرآن لمجرد أن هناك من يستعملها بطريقة أخرى سيئة كمن ينكر الفن العظيم لمجرد أن هناك من يستعمل الريشة والألوان بشكل سيء ، وكأن إذن لوحات بيكاسو ، وفان جوج ، ومايكل أنجلولا عظمة فيها ، فهي ألوان هناك من يستخدمها في الشخبطة .

لا يقلل من عظمة الفن العظيم أن هناك من يسيء استعمال المادة التي استعملها هو ..

إننا بذلك عندما نسمع سيمفونية عظيمة لعباقرة الموسيقى انطلاقاً من كلام حزب نفي القدااسة عن العربية يمكن أن نقول : ليست جميلة ، ولا عظيمة ، لأن الآلة المستخدمة وأخرجت هذه الألحان الرائعة هناك من يستخدمها فيخرج لنا ما يؤذي آذاننا !

لا ، تظل الألحان عظيمة لا يطعن في عظمتها وسموها أن هناك من يستخدم نفس الآلات ليخرج لنا قبلاً . وأخيراً حتى لا نطيل في تنويعات النقطة الواحدة ، هل عظمة خلق الله في السماوات والأرض يمنعها أن تكون عظيمة أن هناك من يحاكيه فيسيء المحاكاة ؟؟ ما نعرفه أن العظيم أصبح عبقرياً لأنه استعمل المادة المتاحة للجميع فخلق منها سحراً ، ومن هنا يتمايز الناس ، ويتميز الشعراء .

أصبحت اللغة العربية عبقرية بالنص العبقري الذي استعمل المادة المتاحة للجميع فخلق منها سحراً ، فأنا ضد الفصل بين القرآن الكريم واللغة العربية ، وسلب اللغة العربية كل الميزات التي حباها بها القرآن الكريم ، وإن كان هناك من يقول : إن مصر هبة النيل ، فأنتَ يمكنك أن تقول : اللغة العربية هبة القرآن الكريم .

إن القرآن الكريم قد كشف كل ما في اللغة العربية من إمكان وقدرات ، وهذا

العمل هو ما جعلها تلك اللوحة التي لا مثيل لها ، فهو وهبها القداسة ليس لأنه كتاب سماوي ، بل لأنه كشف كل ما فيها من روعة .

وهذه الدراسة تكشف بعضاً قليلاً مما أسبغه القرآن على اللغة العربية ، إذ تكشف ما يمكن أن نسميه بالـحرف الوظيفي الذي يعطي للكلمة دلالة خاصة عن الدلالة العامة دون الحاجة إلى ذكر ذلك بشكل صريح ، وهذه الأحرف الوظيفية تتم بزيادة ذلك الحرف لتأدية تلك الوظيفة ، أو برسم الحرف بطريقة مغايرة للمعتاد مثل كتابة تاء التأنيث المربوطة بطريقة مغايرة تشبه تاء التأنيث الخاصة بالفعل أي بالتاء المفتوحة ، أو بكتابة الهمزة بطريقة خاصة ، أو بوضع الألف في جسم الكلمة أو حجه عنها .

والدراسة لا تخترع شيئاً ، فاللغة لا اختراعات فيها ، لكنها تحفل بالكنوز كما تحفل الأرض بالآثار ، فمن يخرج آثار ملك مثل توت عنخ آمون لم يخترع شيئاً ، لكنه كشف عن وجود ما هو موجود بالفعل ، والدراسة هنا تكشف أيضاً عن ما هو موجود ، لكن ربما لم ينتبه له أحد من قبل ، أو انتبه ولكن لم ينتبه إليه بشكل شامل ، أو انتبه لكن لم يستطع أن يصل إلى المغزى من وراء ذلك ، وقد تكون هناك محاولات للوصول إلى اكتشاف ما نحاول أن نكشفه في تلك الدراسة ، لكنها محاولات جزئية لا تليق بكتاب الله الذي لا تصلح معه إلا الأمر الشامل الواحد الذي يحكم الظاهرة كلها ، فلا يكون هناك تعليل لفتح تاء نعمة ، ثم تعليل آخر لفتح تاء لعنة ، بل لابد أن يكون هناك تعليل أوحد لتفسير كل الظاهرة .

ولاشك أن الوقوف على هذه الأحرف الوظيفية ، ومحاولة تقديم نظرية تفسر سر حجب الياء التي تحذف دون مبرر نحوي في كل استعمالها القرآنية ، وكذلك تقديم سبب واحد لتعليل ثلاث وخمسين كلمة في القرآن وردت بالتاء المفتوحة ، وهي أسماء تستوجب الكتابة بالتاء المربوطة ، والهدف أن يصلح التعليل الواحد

لكل الاستعمالات . وكذلك الوصول إلى سبب واحد يبرر للتغاير بين كتابة الألف في الكلمة أو عدم كتابته مثل كلمة (الْقَهْرُ) ، أو (الْقَهَّارِ) ، وهما في النطق واحد ، ولاشك أن تقديم سبب واحد يبرر لحجب الألف في كل الكتاب ينطلق من إيماننا أن كتاب الله لا يصلح معه التعليلات الجزئية لأنها تحكمه وحدة عضوية ، وأن التعليلات الجزئية تصنع تناقضاً وفوضى ، كما أن القانون الذي يصلح للضدين يثبت فعاليته ، فإن صلح التعليل الخاص بالألف في تعليل حجب الألف في كلمة وفي الوقت نفسه لتعليل ذكر الألف في الكلمة نفسها في موضع آخر ، فإن صلح التعليل الواحد لتبرير الضدين دل على قوة التعليل ومثانته ، والمطلوب صمود التعليل لتحقيق التبرير للضدين في كل الاستعمالات .

وقد تناولت الدراسة ستة أحرف وظيفية : تاء التأنيث الخاصة بالاسم وطريقة كتابتها مفتوحة أو مربوطة وسر ذلك في الشكلين ، والثاني : (الألف) ومتى يكتب في جسم الكلمة ، أو يسقط منها ، والسر في ذلك في الاتجاهين ، والثالث : هي نون الفعل (يكن) ومتى تثبت تلك النون ، ومتى تحذف ؟ والحرف الرابع : ياء المنقوص في الاسم ، وياء المنقوص في الفعل ، وياء المنقوص تبقى مع المعرف بأل ، والمضاف ، والثانية تبقى إذا لم يكن الفعل مجزوماً ، ويحذف القرآن ياء المنقوص في حالتها إثبات الياء (المعرف بأل ، المضاف) ويحذف ياء الفعل وهو مرفوع ، مما يعني أن الحذف لم يكن لسبب نحوي لأن النحو يأباه ، فالحذف ليس إلا لسبب وظيفي ، والمطلوب تعليل للحذف والبقاء في الكلمة نفسها إن وردت بالشكلين ؛ ذلك لأن أقوى القوانين ما برر للاستعمالين المتقابلين ، والخامس : اللام التي لا يتطلبها مبرر نحوي ، كوجودها مع الفعل المتعدي بنفسه ، أو فصلها بين المضاف والمضاف إليه مثل { إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ }<sup>(١)</sup> ، ولم يقل (عدوك) بينما عدم الفصل باللام مستعمل في مواضع أخرى في الكلمة نفسها مثل ، { تَرْهَبُونَ

(١) سورة طه . الآية (١١٧) .

بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ<sup>(١)</sup> ، وقد استعمل النمطين في آية واحد في سورة فاطر فجاء بكلمة عدو باللام وبدونها في الآية نفسها : { إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُفْرٌ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا }<sup>(٢)</sup> فوضع اللام أولاً (لَكُفْرٌ عَدُوٌّ) ولم يضعها ثانياً (فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا) .

والحرف السادس : هو الهمزة الأخيرة ومتى تكتب بطريقة غير معتادة مثل كتابة العلماء بالهمزة على واو (عُلَمَاءُ) ، والخامس هوياء المتكلم التي تلحق بالفعل أو بالاسم ثم تحذف في أوقات ، وتبقى في أخرى ، ما القانون الذي يحكم بقاء الياء أو حذفها وخاصة في الكلمة نفسها إذا جاءت بالشكلين .

وتهدف الدراسة من خلال دراسة تلك الأحرف الستة (التاء ، والألف ، والنون ، والهمزة ، والياء ، اللام) أن تقدم سبباً واحداً ينتظم كل استعمالات الكلمة بشكليها . ولاشك أن اكتشاف مثل هذه العلائق بين الظاهرة الواحدة ، وأنها لا يحكمها في كل الاستعمالات إلا سبب واحد ليوضح أن القرآن لم يكن توقيفياً في نطقه فحسب ، بل أيضاً في كتابته ، وأن كتابته تمت بإشراف السماء ، فلا يمكن أن تكون الكلمات التي كتبت بتاء مفتوحة من اجتهادات الكتاب المختلفين ، ثم يكون هناك خيط ينتظم لكل الكلمات التي فتحت تاؤها في مقابل الكلمات الأخرى التي أغلقت تاؤها ، ولا يمكن التبديل بين الأمرين .

ولاشك أن العلم ليس اقتدار شخص ، لأن العلم عطاء من الله عز وجل : { وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا }<sup>(٣)</sup> ، { وَلَوْطًا عَائِنْتَهُ حُكْمًا وَعِلْمًا }<sup>(٤)</sup> ، { فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلًّا عَائِنَا حُكْمًا وَعِلْمًا }<sup>(٥)</sup> ، { وَلَقَدْ عَائِنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا }<sup>(٦)</sup> ، { وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ

(١) سورة الأنفال . الآية (١٠) .

(٢) سورة فاطر . الآية (٦) .

(٣) سورة الكهف . الآية (٦٥) .

(٤) سورة الأنبياء . الآية (٧٤) .

(٥) سورة الأنبياء . الآية (٧٩) .

(٦) سورة النمل . الآية (١٥) .

ءَاتَيْنَهُ حُكْمًا وَعِلْمًا<sup>(١)</sup> ، {وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ، وَاسْتَوَىٰ، ءَأَيْنَنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا<sup>(٢)</sup>} ، {وَإِنَّمَا لَدُوْ عِلْمٍ لِّمَّا عَلَّمْنَاهُ<sup>(٣)</sup>} ، كل هذا يكشف أن مصدر العلم هو الله عَزَّ وَجَلَّ ، ولهذا أمر نبيه أن يقول : {وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا<sup>(٤)</sup>} ، ولم يطلب النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ زيادة في شيء إلا العلم .

فما وصلنا إليه في هذه الدراسة ليس إلا بفضل الله عَزَّ وَجَلَّ ، وإن كان المال له زكاة تصل إلى اثنين ونصف في المائة ، فالعلم زكاته مائة في المائة . والله الحمد والمنة ، والله من وراء القصد ، وهو يهدي السبيل ، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

(١) سورة يوسف . الآية (٢٢) .

(٢) سورة القصص . الآية (١٤) .

(٣) سورة يوسف . الآية (٦٨) .

(٤) سورة طه . الآية (١١٤) .

# الأحرف الوظيفية في القرآن الكريم

## الدراسة النظرية

إن الإيغال في دراسة اللغة العربية يزيدنا يقيناً بعلمية تلك اللغة ، ولا نلبث أن نقف على هندسية اللغة العربية ، تلك اللغة التي قلنا إنها لا تقبل ما هو جائز ، لكنها عند إباحة التفرع تقن هذا التفرع ، فيكون لكل فرع من الفرعين المباحين وقتاً أو مسلكاً ثابتاً لا يستخدمه إلا في هذا المسلك .

وتتسم اللغة العربية بالتموضع ، فتكون الكلمة كأنها ترس في آلة ، نقلها من مكانها أو تغييرها بما يظنه الناس مترادفاً لها كمن يتسبب في تعطيل الآلة أو بعثرة جزئياتها ، وما أكثر ما يقوم بعضهم بسرقة بعض من تعبير محكم فإذا بك ترى أن التعبير النابض بالحياة قد استحال من أشجار يانعة إلى جذوع نخل خاوية ، ومازلت أقول : نحن لا نميز اللغة العربية تعصباً لها دون دليل ، ولكن تتمايز اللغات بقدرات مستخدميها ، وقد تهيأ للغة العربية ما لم يتهيأ لغيرها من مستعمل هو رب العزة فأصبحت اللغة العربية باستخدام القرآن لها وكشفه عن قوانينها لغة محكمة يمكن أن تسميها اللغة العاقلة التي تعرف ما تقول ، وقد كشف لنا المستخدم الأعظم لهذه اللغة كنوز العربية ، وما على المشتغلين بدراسة العربية إلا استقراء الاستعمالات القرآنية ، والوقوف على الروابط التي تحكم الاستعمال لتعرف أن

لكل تعبير قانونه الخاص ، وأن (أعددنا) خلاف (أعدتنا) ، وأن ساء خلاف بسّ ، وأن لكليهما مساره الخاص به ، وقد استهلك العلماء وقتاً طويلاً في الكلام عن عربية القرآن ومحاولة إثبات عربيته مما صرفهم عن محاولة استقراء القوانين اللغوية التي أهداها القرآن الكريم للغة العربية ، ولو أنهم انشغلوا بالتنقيب عن تلك القوانين لكان خيراً لنا من انشغالهم بمحاولة إثبات ما هو مثبت .

وسوف أتناول في تلك الدراسة الممهدة للدراسة التطبيقية عدة محاور :

١. القانون في اللغة .
٢. نظرية التوضع .
٣. مبدأ الشك .
٤. الرسم القرآني .
٥. مبادئ الدراسة الراهنة .

## ١. القانون في اللغة :

كما قلنا من حسن طالع اللغة العربية هو استعمال رب العزة لها في كتابها لتطمئن إلى هندسية اللغة ، وتسعى إلى محاولة اكتشاف القوانين التي تحكم الاستعمالات .

لم يخترع إسحاق نيوتن الجاذبية ، لأنها كانت موجودة بالفعل ، هو اكتشف وجودها هذا ، وهكذا اللغة لم يخترع علماءها نحوها ، لكنهم أبانوه من خلال الاستعمال ، فجاء الفاعل مرفوعاً ، والمفعول منصوباً لأنه هكذا كان الاستعمال ،

وفرقوا بين المعرب والمبني بوحدة الشكل ، فما كان له صورة واحدة لا تتعدد فهو مبني ، وما كانت له أكثر من صورة فهو معرب وهكذا .

وهكذا كان الخليل بن أحمد يفهم أنه لا يخترع ما أتى به ، لكنه يكتشف ما هو موجود بالفعل ، وما فضله إلا أنه كانت له خصوصية الرؤية ، وأنه يرى وحده ما لم يستطع غيره أن يراه برغم وجوده . وإن كانوا يقولون : إن الشاعر يرى ما لا يراه الآخرون ، فتلك مقولة مجازية ، لكنها تصبح حقيقة مع عالم مثل الخليل ، فهو حقاً رأى ما لم يره الآخرون ، ولما قال ما رآه صدّقه الجميع لأنه أشار إلى موجود كان يحتاج إلى مثل عينيه .

لم يخترع الخليل بحر الوافر مثلاً في علم العروض ، لكنه انتبه إلى أن بحور الشعر تعتمد على آية موسيقية ، وهنا أتى بالشعر الذي هو موجود ، وقال هذه المعلقات على بحر اسمه الطويل ، وبدأ يستخرج من القصائد التي على هذا النظام أسرار النظام الخاصة به .

وهكذا اللغة ، لا يخترعها العالم ، لكنه يكتشف أسرار نظامها الداخلي من خلال دراسة الاستعمال ، ولأقف على قانون من قوانين العربية وهو : ما الفرق بين رجال ثلاث ، وثلاثة رجال ؟ ما القانون الذي يحكم استعمالنا لهذا التعبير دون الآخر ؟ ولما رجعت إلى القانون الكريم واستقصيت استعمالاته في الأعداد وجدت أن القرآن لا يستعمل العدد بعد المعدود إلا مع انعدام الاحتمالات الأخرى ، بمعنى لو قال : أيام ثلاثة ، فلا بد ألا يكون هناك احتمال أن يكونوا غير ذلك ، وهذا يتطلب أن تكون تتحدث عن اليوم الرابع الذي من المستحيل أن تسبقه إلا ثلاثة أيام ، هنا تقول : أيام ثلاثة ، وليس ثلاثة أيام .

انظر إلى قوله تعالى : { وَكُنْتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً }<sup>(١)</sup> ، يتكلم عن يوم القيامة والذين

(١) سورة الواقعة . الآية (٧) .

سيدخلون الجنة ثلاثة أصناف فحسب ، لا مجال أن يكونوا أربعة أو خمسة أو غير ثلاثة ، فالجنة لها زوجان : السابقون وأصحاب اليمين ، والنار : أصحاب الشمال ، فهنا انكسر أي احتمال آخر فتحتم أن يأتي العدد بعد المعدود ، كذلك قوله : { يَخْلُقْكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِّنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ }<sup>(١)</sup> ، فكل أرحام النساء ظلماتها ثلاث ، لا احتمال أن تكون هناك أربع ظلمات عند واحدة ، فالاحتمالات الأخرى معدومة ، وهنا يتوجب استخدام العدد بعد معدوده ، وكذلك قوله تعالى : { وَالْفَجْرِ ﴿١﴾ وَلَيْالٍ عَشْرٍ }<sup>(٢)</sup> ، الفجر هو فجر عيد الأضحى وهو العاشر من ذي الحجة ، وهذه يسبقه عشر ليال لأن الشهر يبدأ بليله ، فلن يأتي عام سواء مضى أو قادم إلا ويوم العاشر من الشهر تسبقه عشر ليال ، وهنا انكسرت الاحتمالات الأخرى ، لذلك وجب إثبات العدد بعد معدوده .

والاستعمال الأخير في القرآن الكريم الذي جاء فيه العدد بعد معدوده : جاء مكرراً : { تَسْبِحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ }<sup>(٣)</sup> ، { قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ }<sup>(٤)</sup> ، وقد تقول هذا يطعن في نظريتك ، لأن السماوات وردت في القرآن الكريم بذكر العدد قبل المعدود أيضاً مثل : { فَسَوَّيْنَهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ }<sup>(٥)</sup> ، وتكرر ذكر سبع سماوات أربع مرات أخرى<sup>(٦)</sup> وأقول لك : إن الاستعمالين المتقابلين هما أقوى الأدلة على القانون إذا قبلاه معاً ، وما المغايرة هنا إلا بسبب وجود الاحتمال في أحدهما وانعدام الاحتمالات الأخرى في الآخر ، ذلك لأنه عند تسوية السماوات كان لرب العزة المشيئة في أن يجعلها العدد الذي يشاء ، فكان يمكن أن يجعلها سبعاً ، أو أكثر أو أقل ، ويكون فيها الحكمة أيضاً فهو على كل شيء قدير ، إذن التعبير الأنسب

(١) سورة الزمر . الآية (٦) .

(٢) سورة الفجر . الآيتان (١ - ٢) .

(٣) سورة الإسراء . الآيتان (٤٤) .

(٤) سورة المؤمنون . الآيتان (٨٦) .

(٥) سورة البقرة . الآيتان (٢٩) .

(٦) سورة فصلت . الآية (١٢) . سورة الطلاق . الآية (١٢) . سورة الملك . الآية (٣) . سورة نوح . الآية (١٥) .

عند الخلق هو العدد أولاً لأن الاحتمالات الأخرى متاحة ، لكن عند بناء السماوات واكتمال الخلق ، انعدمت الاحتمالات ، فهي سبع ولا يمكن أن تكون إلا كذلك ، فهنا بانعدام الاحتمالات يتوجب أن يكون العدد بعد المعدود .

وهكذا يكشف لنا القرآن الكريم قانوناً في تقنية استعمال العدد مقدماً عن معدوده أو مؤخراً ، ونكتشف لما رأينا ما لم نكن نراه كم هي جميلة تلك العين التي أرتنا ما لم نكن نراه ، فكما قلنا : العالم هو من يرى ما لا يراه الآخرون مما هو موجود بالفعل ، فإذا أشار إليه رآه الجميع .

وإذا ظلت القوانين الحاكمة للنظام خافية على الناس فلن يعرفوا أن هناك نظاماً يحكم المسألة ، وستجد مستخدمين ينحرفون بالاستعمال ، لكنك لو وقفت على القوانين الحاكمة كمثل القانون السابق ستعرف كم هي جميلة تلك اللغة بهندستها وقانونيتها .

وقد وجدت أن وراء كل كلمة في اللغة العربية ، وكل تركيب نظاماً يحكمه ، مما يقطع بهندسية تلك اللغة ، وأنها وإن كانت جميلة فجمالها يرجع في المقام الأول لعلميتها وهندستها التي جعلها تتعصى على الفوضى ، ومن هنا كان القرآن الكريم أحد مستخدمي اللغة العربية يتعصى على تغيير حرف واحد ، لأن اللغة يحكمها قانون في مفرداتها وتراكيبها .

وسأضرب مثلاً للمفردة بمثال أكثر من استعماله لأن الهدف البيان : وهي المفرد الخاصة بجمع (الميت) ، فوجود ثلاثة جموع للكلمة ، وفي الوقت نفسه لا تستطيع أن تضع جمعاً مكان الآخر ليعني أن لكل كلمة من كلمات الجمع تقنيها الخاص المستقل عن أختيها ، فكلمات ( أموات ، موتى ، ميتون ) ثلاثتها في القرآن الكريم ، لكنك لا يمكنك أن تضع كلمة مكان الأخرى ، وإلا كنت ممن يحرون الكلم عن مواضعه . بينما لو ترجمت هذه الكلمات إلى لغات أخرى ستترجم بكلمة واحدة ،

ولهذا ستفقد الفروق الفارقة بين بعضها البعض التي تزر بها في العربية ، ولهذا قلنا لا يمكن ترجمة القرآن الكريم ، وانظر إلى تلك العلمية في هذه الاستعمالات: من خلال التقنين العلمي لكل مفردة

موتي: الموت بين حياتين ( مرحلة القبر قبلها حياة وبعدها حياة ) مثل : يحيي الله الموتى ، فلا يجوز أن تقول يحيي الله الأموات أو الميتين .

ميتون: هم الذين على قيد الحياة ولم يموتوا بعد ، لكنهم محكوم عليهم بالموت ، فيحملون بذرة الموت المخلوق بداخلهم ، وقد قال الله لرسوله ومن معه: { إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَّيِّتُونَ } <sup>(١)</sup> وكانوا على قيد الحياة .

أموات: لم تدخلها الروح ، فهي تدل على الخلو التام من الحياة ، فلم يدخلها حياة ، فهي الموت اللازم للجماذ ، وجاءت مرتين لنفي أن يكونوا الشهداء قد أصبحوا أمواتاً لا يشعرون ، فهم في منزلة أعلى ، فهم ليسوا موتي كالموجودين في القبور ، وليسوا ميتين كالذين على قيد الحياة وسينتهون إلى القبور ، لكنهم أحياء ، وجاءت لإثبات الموت للأصنام التي يعبدها المشركون ، فأثبت لها هذا الموت الحسي وأكده بعد الحياة فقال عنها أموات غير أحياء . وانظر إلى قوله تعالى لما استعملها عن الإنسان في سورة البقرة : { كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ } <sup>(٢)</sup> .

كُنْتُمْ أَمْوَاتًا : قبل الولادة ( وهم تراب ) .

فَأَحْيَاكُمْ : بعد الولادة .

ثُمَّ يُمِيتُكُمْ : دخول القبر .

فالتعبير عنا بكلمة أموات في المرحلة الزمنية التي تسبق الولادة لتشهد بأن

الكلمة تفيد اللاحياة؛ وهكذا استوعبت هذه الجموع الثلاثة مراحل الإنسان ، فنحن

(١) سورة الزمر . الآية (٣٠) .

(٢) سورة البقرة . الآية (٢٨) .

أموات قبل الولادة ، ميتون بعد الولادة ، موتى ونحن في القبر ننتظر البعث.

ولنقف على مفردة أخرى للتأكيد على العلمية والتقنين في مفردات اللغة العربية ، ولنتكلم عن منظومة التنقل من مكان إلى آخر أو العكس.

○ أتى: بداية التحرك من مكانك إلى وجهتك قبل الوصول إليها، فلو أنت في النقطة (أ) وتحركت إلى النقطة (ب) دون أن تصل إليها، فالفعل المناسب (أتى)، وانظر إلى قوله تعالى: {آتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ} <sup>(١)</sup> أي أن الأمر انطلق فعلاً، وهو في طريقه إليكم، ولهذا صح الطلب بعدم استعجاله.

○ جاء: هي الوصول الفعلي إلى الوجهة المقصودة، أي وصولك بالفعل إلى النقطة (ب). وسوف نأخذ مثلاً مشتركاً لاستعمال الفعلين في موقف واحد، هو موقف موسى عليه السلام، وانطلاقه إلى الشجرة. فنقطة الانطلاق هي المكان الذي كان يقف فيه هو وأهله ورأى النار ، نقطة الوصول إلى النار أو الشجرة. فانظر إلى تلك المغايرة:

① { فَلَمَّا جَاءَهَا نُودِيَ } [النمل]

② { فَلَمَّا أَنهَا نُودِيَ } [طه]

في الشكل الأول: { فَلَمَّا جَاءَهَا } <sup>(٢)</sup>: الفعل جاء يعنى وصول القادم إلى محطته المنشودة ، الذى خرج من مكانه قاصداً إياها، ولذلك جاء قوله الله له ( نُودِيَ أَنْ بُورِكَ مَنْ فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا ) ، وهو يدل أن موسى دخل المكان، وشملته بركة الله.

وفي الشكل الثاني: { فَلَمَّا أَنهَا } <sup>(٣)</sup>: الفعل أتى، هو مرحلة ما قبل الوصول، فالنص هنا يتحدث عن رحلة موسى إلى الشجرة قبل الوصول إلى الشجرة،

(١) سورة النحل. الآية (١).

(٢) سورة النمل: { فَلَمَّا جَاءَهَا نُودِيَ أَنْ بُورِكَ مَنْ فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ } (٨).

(٣) سورة طه: { فَلَمَّا أَنهَا نُودِيَ يَمُوسَىٰ } (١١) إِنَّي أَنَا رَبُّكَ فَاحْطَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى } (١٢).

ولذلك جاء النص يبين أنه مازال خارج المكان لم يصل إليه، فالله عزَّ وجلَّ يطلب منه أن يخلع نعليه ( فَأَخْلَعَ نَعْلَيْكَ ) مما يدل على أنه لم يدخل المكان بعد. فالفعل أتى: إذا كان في طريقه. مازال. والفعل جاء إذا وصل إليها فعلاً،

رد : الرد: هو الشروع في الرجوع، فهو جنين فعل الرجوع. فعندما تبدأ رحلة الرجوع من الوجهة المنشودة (ب) إلى محطة الانطلاق (أ) دون الوصول إليها فهذا هو الرد. فهو معكوس الفعل (أتى).

رجع : هو الانتهاء إلى محطة الانطلاق التي انطلقت منها أي الوصول الفعلي للنقطة (أ) التي بدأت منها. ومرة أخرى نستعمل مغايرة أخرى في موقف مشترك هو استعادة أم موسى لوليدها الصغير موسى: تم استعمال الفعلين (رد، رجع):

① } فَرَدَّدْنَاهُ إِلَىٰ أُمِّهِ. كَيَّ نَفَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ [القصص] ١٣

② } فَرَجَعْنَاكَ إِلَىٰ أُمِّكَ كَيَّ نَفَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ [طه] ٤٠

في الشكل الأول: { فَرَدَّدْنَاهُ إِلَىٰ أُمِّهِ }<sup>(١)</sup>: الرد هو الشروع في الإرجاع، فالطفل الصغير موسى مازال في قصر فرعون، فلما حرم الله على الطفل المراجع، فلم يترك لهم طريقاً سوى قبول نصيحة الأخت: { هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ. } فلما وافقوا، فقد بدأت رحلة رجوعه إلى أمه لكنه لم يصل إليها بعد، وهذا هو الرد. وتكرر الأمر في قوله تعالى: { فَالْقِيَةِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ }<sup>(٢)</sup> إذ يتحدث عن رجوع لم يتم بعد، لكنه سيتم فيما بعد، فهي مازالت لم تلقه في اليم، فإذا ألقته وذهب إلى هناك حيث قصر فرعون، فإن الله سيبدأ له من هناك طريقاً يرجع إليها. عندما يوافق الفرعون أن يحضر أمه له، فإذا وصل إلى صدرها فقد رجع فعلاً.

(١) سورة القصص: { فَرَدَّدْنَاهُ إِلَىٰ أُمِّهِ كَيَّ نَفَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَتَعَلَّمَ أَنَّهُ وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ } ١٣

(٢) سورة القصص. الآية (٧)

{فَرَجَعْنَاكَ إِلَىٰ أُمِّكَ} <sup>(١)</sup> : الحديث هنا موجه إلى موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ ، فهو يحكى له موقفاً سابقاً حدث له في طفولته، في سياق المن عليه، ولذلك عدل عن لفظ الشروع في الرجوع أى هوي في الطريق إلى المكان الذي تركه وهو بيت أمه. والمن يقتضى أن يكون قد رجع فعلاً ووصل إلى بيت أمه ثانية. كما أنه لا يحكى القصة بتزامنها الوقتي، فهو لا يصف لنا رحلة موسى منذ ألقته أمه في اليم، حتى وصل إلى القصر وحرمت عليه الأمراض وجاءت أخته تعرض عليهم مرضعاً، وهنا كانت موافقتهم هى شروع في إرجاع إلى أمه، والإرجاع هو وصوله إلى أمه، فلما كان مازال لم يرجع فهو في مرحلة الشروع لذلك أطلق لفظ (رد) فإن وصل إلى أمه فعلاً كما حدث بعد ذلك أطلق لفظ (رجوع). وكانت الدقة في استخدام الشروع حين كانت سورة القصص تتبع الطفل وتتحدث عن اللحظة بين وجوده في القصر وبين رجوعه إلى أمه، أما سورة طه فهي تحكى عن المن بالرجوع إلى الأم فعلاً، والقصة قد حدثت كلها.

وهكذا نرى أن منظومة الأفعال الأربعة كالاتي:

ب

جاء

ب

← أتى

أ

→ رد

أ

رجع

● ﴿قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾ (٤٠) (أل عمران) .

● ﴿قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾ (٤٧) (أل عمران) .

(١) سورة طه . الآية (٤٠)

إن لفظ (يَخْلُقُ) في الآية الثانية لا يمكن أن تسد مكان لفظ (يَفْعَلُ) وكذلك العكس . فالعبارة الأولى على لسان الملاك لذكريا يبشره يحيى ، والثانية على لسان الملاك لمريم يبشرها بعيسى . وولادة يحيى ليست معجزة ، لكنها مخالفة عادة أن ينجب عجوزان في سن متأخرة؛ لهذا لم يستعمل للتعبير عن مخالفة العادة لفظ (يخلق) . أما الثانية (ولادة عيسى) فأمر خارق للطبيعة فهو معجزة لأنه خلق يماثل خلق آدم يتم بدون الطريق الطبيعي للإنجاب ، لهذا استخدم لفظ (يَخْلُقُ) ولا يصلح اللفظان في التبادل ، لأن كل منهما لا يصلح إلا في مكانه . فكسر العادة المتبعة ليس بخلق ، والإنجاب دون أب خلق ، فاستخدام الفعل خلق ، لا يصلح مكانه الفعل (أنشأ) وانظر التعبيرين الآتين :

● ﴿ خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ﴾ (النساء) .

● ﴿ أَنْشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ﴾ (الأنعام)

لا يمكنك أن تضع كلا الفعلين مكان الآخر ، لأنه في النص الأول يتحدث عن نفس واحدة هي آدم ، فقد خلقهم الله من أصل واحد هو نفس أبيهم آدم . ومن تلك النفس الواحدة (آدم) ، خلق زوجها (حواء) ، ومنهما معاً بث نوعي جنس الإنس من الذكور والإناث .

● ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً ﴾ (النساء) .

وفي النص الثاني يتحدث عن أصل آدم ، فقد أنشأه الله من تراب ، فعند الحديث عن الأصل الترابي لآدم استخدم الفعل (أنشأ) ، وقد ذكر بعدها قوله (وَمُسْتَوْعًا فَسْتَقَرُّوا) أي أن التراب الذي أنشأ منه آدم سيكون مستقراً له يعيش فوقه ، ومستودعاً تحته (عند الموت) . فما بعدها يفسر أن المقصود الأصل الذي جاء منه الإنسان ، فهذا التراب الذي أنشأ منه آدم سيمشى فوقه أثناء حياته ، وسيدفن تحته بعد وفاته .

﴿ وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ﴾ (٩٨) (الأنعام) .

وهكذا نرى أنه عندما راعى الأصل الترابي استخدم أنشأ ، وعندما راعى الإنشاء من عدم استخدم خلق .

إن الجملة القرآنية بناء أشبه ببناء السماء ، متماسك دون لحام ، لا انفصام لها ، كذلك الجملة القرآنية بناء ، يشد بعضها بعضاً . فلا يمكن أن تضع كلمة مكان كلمة ، ولنعط أمثلة سريعة ، فالقرآن يفرق بين الجلوس والقعود ، ليس كما قيل أن الجلوس : من الوضع نائماً ، والقعود من الوضع واقفاً ، لا ، هذا كلام تنقصه الدقة . القرآن يستخدم لفظ الجلوس إذا كانت مدة الجلوس قصيرة ، ويستخدم لفظ القعود إذا كانت مدة المكث طويلة . ولذلك لا يمكن أن تضع كلمة مكان أخرى .

القرآن يفرق بين القبور والأجداد ، فالقبور ما احتوت الميت بداخلها ، فإذا خرج منها لم تعد قبراً ، بل جدث . ويفرق بين البيوت والديار ، فالبيوت من البيوتة وهي الراحة فهي المناسبة للسكن والسكنى ، أما الديار في الدنيا فهي من السوء لهذا لا يستخدمها إلا إذا فارقتها أهلها . فلا يمكن أن تحل كلمة منهما مكان الأخرى ، ويفرق بين الخشية والخوف : فالخوف منك ، والخشية من الآخر ، فلو كان الشيء ليس مخيفاً وخفت منه فأنت خائف ، لأن العيب فيك أنت ، أما إذا كان الشيء عظيماً يستحق الخوف منه فهي الخشية .

وإذا كانت الأشياء متداخلة في مكان واحد وصفها بلفظ ( شتى ) فإذا كانت متباعدة في أماكن عدة سماها ( أشتات ) فالتباعد النوعي يسميه شتى ، والتباعد المكاني يسميه ( أشتات ) .

وعلى مستوى الجماعات : إذا كانت الجماعات متفرقة يسميها أبابيل ، وإذا كانت متوالية يأتي بعضها في أثر البعض الآخر يسميها ( أفواجاً ) ، وإذا كانت

متحدة يجمعها مكان واحد وزمان واحد يسميها (زمرّاً) .

وعند التقسيم إذا انقسم الشيء إلى أجزاء فهو يختلف عن انقسامه إلى أفراد ، فالأول يسميه (عضين ) وهو أن يُقسَم الشيء إلى قطع صغيرة . والثاني يسميه (عزين) فهو تقسيم الفريق الواحد إلى أفراد متفرقة .

تلك أمثلة قليلة ، فلا شيء في اللغة العربية يساوي الآخر ، ولا تصلح كلمة أن تحل محل مرادفتها .

أما في التراكيب : فمتي تقول : (أخرى ، آخر) نعتاً لموصوف جمع : إن ثمة قانوناً يحكم الاستعمال : {ءَالِهَةٌ أُخْرَى} (١) ، {وَلِي فِيهَا مَأْرِبٌ أُخْرَى} (٢) بينما يصف جموعاً أخرى بالجمع (آخر) : {فَعِدَّةٌ مِّنْ أَتْيَامٍ أُخْرٍ} (٣) ، {وَأُخْرُ مُتَشَبِهَاتٍ} (٤) ، {وَأُخْرَ يَابِسَاتٍ} (٥) فلو لاحظت القانون الذي سيحكم هذا التغير الاستعمالي هو أن مفردات الجمع منسجمة أو متنافرة ، فإن كان مفردات الجمع منسجمة كل منها يماثل الآخر جاء بالوصف الجمعي للإشارة إلى تعدد الواحد وهذا تراه في الأيام المعوضة عن الصيام فكل يوم مثل الآخر ، وفي آيات القرآن الكريم فكل آية تشبه الأخرى ، وفي السنبلات الرامزة لسنين الشدة في الرؤيا التي فسرها يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ ، فكل سنبلة مثل الأخرى ، بينما الأمر ليس هكذا في الآلهة ، ومأرب موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ من العصا ، فالآلهة مختلفة ، والمأرب كذلك ، فجاء بالوصف المفرد للإشارة إلى أن كل مفردة في وادٍ ، وأنها لا يربطها رابط يؤهلها لأن تكون متحدة مع أخواتها .

ومن التراكيب التي عَلَّمْنَا الاستعمال القرآني قانونها الذي يحكمها (أَيَّامًا

(١) سورة الأنعام . الآية (١٩)

(٢) سورة طه . الآية (١٨)

(٣) سورة البقرة . الآية (١٨٥)

(٤) سورة آل عمران . الآية (٧)

(٥) سورة يوسف . الآية (٤٣)

مَعْدُودَاتٍ، أَيَّامًا مَعْدُودَةً ) أو بمعنى آخر متى أصف الجمع المعدود بالوصف الجمعي ، ومتى أصفه بالوصف الفردي ،

① { قَالُوا لَنْ تَمْسَنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ } [آل عمران]

② { لَنْ تَمْسَنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً } [البقرة]

هاتان قولتان لليهود : قالت اليهود : قالت اليهود : لا نعذب في النار يوم القيامة إلا أربعين يومًا مقدار ما عبدنا العجل<sup>(١)</sup> ، وقالت اليهود في مرة أخرى : إنما مدة الدنيا سبعة آلاف سنة، وإنما يعذب الله الناس يوم القيامة بكل ألف سنة من أيام الدنيا يوما واحدا من أيام الآخرة، وإنما سبعة أيام<sup>(٢)</sup>.

ولأن القولتين كاذبتان ، فقد عدل القرآن عن ذكرهما صراحة ، لكنه أراد إثبات كذبهم ، فأشار إلى الواقعتين ، وكنى عن الأعداد المعزوف عن ذكرها ، فعبر عن العددين المختلفين بكنائيتين عدديتين ، واستخدم تقنية معادل التمييز الذي يشير إلى العدد ، ولأن قاعدة التمييز في العدد هو أن أعداد القلة من ثلاثة إلى عشرة تمييزها جمع ، بينما بعد العشرة يلزم التمييز الأفراد ، لذلك لما أراد أن يعبر عن العدد (سبعة) الذي تمييزه جمع ، جاء بنعت جمع ليعادل العدد الذي تمييزه جمع ، فقال في سورة آل عمران : { لَنْ تَمْسَنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ }<sup>(٣)</sup> ، وعبر عن العدد الآخر (٤٠) بكناية عددية هي النعت المفرد ليعادل العدد الذي تمييزه مفرد ، فقال في سورة البقرة : { لَنْ تَمْسَنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً }<sup>(٤)</sup> ، وهكذا

(١) أبو جبر الطبري . جامع البيان . تحقيق محمود شاكر . الجزء الثاني . ص (٢٧٧) .

(٢) أبو جبر الطبري . جامع البيان . تحقيق محمود شاكر . الجزء الثاني . ص (٢٧٧) .

(٣) سورة آل عمران : { ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَنْ تَمْسَنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ وَعَرَّهْمُ فِي دِينِهِمْ مَا كَانُوا

يَفْتَرُونَ } [٢٤]

(٤) سورة البقرة : { وَقَالُوا لَنْ تَمْسَنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً قُلْ أَخَذْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدًا

فَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُمْ أَمْ نَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ } [٨٠]

عَلَّمَنَا القرآن الكريم القانون الذي يحكم المغايرة العددية : وهو التعبير بنعت مفرد عن العدد الذي يزيد عن عشرة ، والتعبير بنعت جمع عن العدد من ثلاثة إلى عشرة .

وهكذا لا نمضي في تأمل الاستعمالات القرآنية التي تعلم أنها لا يجوز أن تكون إلا كذلك إلا ونكتشف القانون الحاكم لهذا التعبير .

ما سبق كان أمثلة قليلة من آلاف الأمثلة التي يمكن أن نضربها لإثبات قانونية اللغة العربية ، وأن كل كلمة لا يمكن أن تكون متموضعة في مكانها إلا إن كان هناك قانون يحكم ذلك .

## ٢. نظرية التموضع :

وقد كشف لنا التقنين الصارم في استعمال المفردة والتركيب في القرآن الكريم إلى ما يمكن أن نسميه بنظرية التموضع ، والتموضع : أن تتبوأ الكلمة مكانها فلا يمكن زحزحتها ، فلا تصلح أختها مكانها ، ولا يصلح تقديمها ولا تأخيرها ، ولا استبدال حرف عطف بآخر كل كلمات الآية في أماكنها ، ولا يصلح مكانها إلا هي ، وكأنها ترس في آلة لو لم تضع الترس المحدد لا يمكن أن تعمل الآلة ، وكأن هذا المكان لا ينبض بالحياة إلا مع هذه الكلمة .

وهذا الإحكام في المكان للكلمة يجعلها محكمة في مكانها فلا يصلح ما يسمى مرادفها بأن يحل محلها ، إن كلمة نسوة لا يصلح أن يحل محلها كلمة نساء ، ولا كلمة قرده يمكن استبدالها بقرود ، فكلتا الكلمتين وزن فعلة وهو وزن يعني فئة مخصوصة تمتاز عن جنسها العام بصفات خاصة ، فالنسوة هي الفئة الاجتماعية

المترفة اللاتي يقتلن الفراغ ، والقردة هي نوع من القرود ممسوخ خاسئ لا يتمتع بانطلاق القرود وخفتها .

كذلك {فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا} <sup>(١)</sup> تختلف عن {وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا} <sup>(٢)</sup> ، فالأولى خاصة بجهنم التي تفرغ القادمين إليها بالفتح بغتة ، والثانية معها واو الحال خاصة بالجنة فتلك حالتها عندما جاءوها أى كانت مفتوحة قبل حضورهم .

إن اللغة العربية مدينة للقرآن الكريم ، لأن اللغة بقدرات مستخدميها ، فلما تهيأ للغة ذلك الحظ العظيم بأن يقع عليها اختيار رب العزة لتكون اللغة التي يستخدمها ، فقد تهيأ لها أعظم المستخدمين ، ومن ثم كان الكتاب منجم ذهب لهذه اللغة ، فقد أخرج المستخدم الأكبر منها كل إمكاناتها ، وبذلك كشف لنا كنوز العربية وأوقفنا على قوانين في العربية ما كنا لنستطيع أن نصل إليها .

لقد كشف لنا القرآن الكريم أن تلك اللغة لغة علمية ، لا فوضى فيها ، ولا تناقض حتى يمكن تسميتها باللغة العاقلة ، وأن لكل كلمة تقنينها العلمي ، وسوف أقف في التموضع على آية كاملة لنرى كيف أن الكلمات كالسبيكة لا يمكن أن تتنحى الكلمة لأختها ، أو أن يتحول حرف إلى حرف آخر . وقد اخترت الآية الثلاثين من سورة يوسف كمثال على نظرية التموضع التي تحكم القرآن الكريم :

• ﴿وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَنْ نَفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ <sup>(٣٠)</sup> (يوسف) .

وَقَالَ

استعمل الواو لإفادة الانتقال إلى مشهد آخر يختلف في المكان والزمان ، فالمشهد السابق كان امرأة العزيز تراود فتاها ، وهذا المشهد هو حديث النسوة

(١) سورة الزمر. الآية (٧١) .

(٢) سورة الزمر. الآية (٧٣) .

عنها ، فهن يتكلمن عنها في قصورهن ، وبعد هذا الحدث بمسافة زمنية تسمح بانتشار نبأ الفضيحة .

واستعمل الفعل قال لأنه أحد أدوات الدرامية التي تنقلك إلى قلب الحكاية مباشرة ، وجاء الفعل بصيغة التذكير والفاعل مؤنث ، وأرى أن تعليل ذلك بما يقوله النجاة من جواز تذكير الفعل وتأنيثه مع جمع التفسير وملحقاته يصنع فوضى لغوية .

لكني لا أميل إلى ذلك ، لأن هذا يصنع فوضى لغوية ، فحتى الجواز لا بد أن يكون مقنناً . وأنا أسأل: إن كان يجوز التذكير والتأنيث هنا ، فمن يستطيع أن يستعملها ويقراً الآية بالفعل (وقالت) ؟؟ ولا يستطيع أحد من المسلمين أن يفعلها ؟؟ فأى جواز هذا الذي لا يجوز لك أن تستعمله . ولا يجوز لك معه إلا وجهاً واحداً ؟؟؟!

جاء الفعل مذكراً خالياً من تاء التأنيث ، ليس لجواز التذكير والتأنيث مع جمع التفسير ، فليس في القرآن الكريم: جواز ، وكل جائز لا بد من تقنين الجواز ، لكن هنا نخلق فوضى.. فمن الممكن أن تستعمله مذكراً ، وغيرك يستعمله مؤنثاً ، لا.. ثمة قانون يحكم الجواز.. فلا يكون بالمزاج..

وهكذا مع جواز التأنيث والتذكير في جمع التفسير يضع القرآن تقنين التفرع لكل اتجاه منهما ، فجمع التفسير الكثير ليس إلا التأنيث ، وجمع التفسير القليل ليس إلا التذكير . وهكذا يعلمنا القرآن الكريم قانون جواز تأنيث الفعل مع جمع التفسير:

الفاعل التفسير الكثير: تأنيث.

الفاعل التفسير القليل: تذكير.

وعدهن قليل ، ولذلك استخدم الفعل معها في صيغة المذكر ، فالمعروف أن

العرب تستخدم المؤنث للدلالة على الكثرة، والمذكر يؤتى به للدلالة على القلة، ويمكنك أن تتقف على ذلك من خلال المقارنة بين قوله تعالى:

(وَقَالَ نِسْوَةٌ<sup>(١)</sup>) : الفعل مذكر برغم أن الفاعل جمع تكسير (يجوز فيه التذكير والتأنيث) لأن النسوة المتقولة عن امرأة العزيز قليلات.

نسوة عددهم قليل. ولذلك استخدم الفعل معها في صيغة المذكر، فالمعروف أن العرب تستخدم المؤنث للدلالة على الكثرة، والمذكر يؤتى به للدلالة على القلة.

(قَالَتِ الْأَعْرَابُ<sup>(٢)</sup>) : الفعل مؤنث برغم أن الفاعل جمع تكسير (يجوز معه التذكير والتأنيث) لكنه التزم التأنيث لأن الجمع (الأعراب) كثير.

• وَقَالَ نِسْوَةٌ : النسوة عددهم قليل.

• قَالَتِ الْأَعْرَابُ : كثرة القائلين.

تاء التأنيث تدخل على الفعل عند الفاعل المؤنث، نقول جاء محمد، وجاءت فاطمة، لكن متى تدخل تاء التأنيث على الفاعل الجمع؟ إن جمع التأنيث يجوز أن يؤنث فعله أو يذكر. لكن برغم الجواز فالأمر مع القرآن الكريم لا يتم إلا بقانون، والقانون إن التأنيث أكثر من التذكير. فلذلك عند الكثرة نستخدم التأنيث مع الفعل، وعند القلة نستخدم التذكير مع الفعل.

الذي أسند لمؤنث ومع ذلك خلا من تاء التأنيث، وذلك لأن الفاعل جمع تكسير، وفي العربية يجوز تذكير الفعل وتأنيثه إذا أسند لجمع تكسير.. والقانون: إن الفاعل التكسيري الكثير يؤنث فعله، والفاعل التكسيري القليل يذكر فعله.

ولأن النسوة قليلات تكاد لا تزيد على أصابع اليد الواحدة جاء الفعل مذكراً،

(١) سورة يوسف. الآية (٣٠)

(٢) سورة الحجرات: الآية (١٤).

قال عزَّ وَجَلَّ: قالت الأعراب.. الأعراب كثيرون.. لذلك تم تأنيث الفعل،

وانظر إلى تأنيث الفعل في قوله تعالى: {كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا وَأَوْدُوا حَتَّىٰ أَنهَم نَصْرًا} (١) لأن الفاعل كثير، فالذين صبروا من الرسل على التكذيب والإيذاء كثيرون. بينما جاء التعبير نفسه بالتذكير في آية أخرى: {فَإِن كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ جَاءُوا بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ} (٢) ذلك لأن الرسل هذه المرة قليلون، وما يثبت تلك القلة هو وصفهم بأنهم (جَاءُوا بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ) (٣)، فالذين جاءوا بالكتب أقل من الرسل بشكل عام.

وهكذا ترى أن الفعل (كُذِّبَ) جاء مرة مذكراً وأخرى مؤنثاً، على الرغم أن الفاعل واحد هو رسل، وبرغم أن العربية تجيز مع جموع التكسير: التذكير والتأنيث، إلا أن القرآن الذي لا يجوز معه تحريف الكلم عن مواضعه، يأبى أن يكون هناك إجازة لاستعمالين دون تقنين، لأن هذا يعني أن تضع الجائز الثاني مكان الأول، وهنا يُحَرِّف الكلم عن مواضعه، لهذا فليس مسموحاً أبداً في القرآن الكريم فوضى الجواز، وإن كانت العربية تسمح بجواز استعمالين، فليس معنى ذلك أن يحل أحدهما مكان الآخر، بل لابد أن يكون هناك مبررٌ هندسي للجواز، أي أن يكون الاستعمال قابلاً للتقسيم، فيكون ثمة تفرع إلى فرعين، وهناك يكون صرامة في اختيار كل فرع، بحيث لا يمكنك أن تختار أحد الفرعين إلا بنفس السبب الذي اخترته من قبل. فيكون هناك تقنين في الجواز، والقانون المستعمل في جواز تذكير أو تأنيث الجمع، هو أن الجمع قابل للتقسيم إلى الكثرة والقلة، فيكون هناك التقنين في اختيار أحد الفرعين، والعربية ترى أن التأنيث تناسبه الكثرة، والتذكير يناسبه القلة، لهذا فالقرآن الكريم لا يتفرع في الجواز إلا بهذا التقنين، ويصبح الأمر ليس كما يقولون: جواز التذكير والتأنيث مع جمع التكسير، لا، بل يصبح قانوناً: كل جمع

(١) سورة الأنعام . الآية (٣٤) .

(٢) سورة آل عمران . الآية (١٨٤) .

(٣) سورة آل عمران . الآية (١٨٤) .

تكسير كثير واجب التأنيث، وكل جمع تكسير قليل واجب التذكير.

وهكذا بعد أن وقفنا على قانون مطرد في استعمال العربية بجواز التذكير والتأنيث لجمع التكسير مع تقنين التذكير عند القلة، والتأنيث عند الكثرة، نرى أن قوله: قال نسوة.. جاء الفعل مذكراً متسقاً مع القانون.

نِسْوَةٌ

جاءت نسوة لا نساء.. لأن النساء الجنس العام المقابل للرجال. أما النسوة فهم فئة من الجنس العام لهن صفات نفسية أو اجتماعية خاصة. والنسوة هنا هي فئة مترفة شديدة الترف، فهي لا تعبّر عن عموم النساء، لكنها تعبّر عن فئة متميزة منهن.

وهكذا يفرّق القرآن بين جنس النساء، وفئة مخصوصة منهن يعشن الترف والفراغ. وقد جاءت في التنزيل العزيز مرتين، وكلتا المرتين في سورة يوسف تتحدث عن فئة من النساء اللاتي يعشن ترفاً وفراغاً، وكأن النسوة مهنة لهن.

وكذلك وزن فعلة.. فقد استعمل في موضع آخر كلمة قرودة جمع قرد وعدل عن قرود، وذلك عند الحديث عن القرية حاضرة البحر الذين عصوا أمر ربهم فمسخهم بالمركن: مونا قرودة خاسئين، فهنا لا يتحدث عن القروود بشكل عام، لكنه يتحدث عن قروود لها سمات نفسية خاصة، فهي تعرف أنها لم تكن قرووداً، وتعرف أنها كانت بشرًا، وتحس بالخزي والعار مما آلت إليه بخلاف القروود التي تعيش منطلقة سعيدة بحياتها.

فِي الْمَدِينَةِ :

( في ) حرف ظريفي، والظرفية أن يكون ما بعدها كالظرف الذي يحتوي مظهره

فهو يحيطه.

وشبه الجملة ( في المدينة ) هونعتُ للنسوة، وهن لا بد أن يكنَّ في مكان ما، فما الحاجة لوصفهن بأنهن في مكان ؟؟ ليشير أنهن متفرقات في تلك المدينة الواسعة، مما يفيد أنهن انتقلن إلى بعضهن البعض للتحدث في شأن امرأة العزيز، أي أن تلك النسوة تحركن إلى بيت واحدة واحدة منهن.

ولما كان من سمات الترف عدم التنقل، وأن تُزار الواحدة منهن، وليس أن تزور كان هذا التنقل منهن كاشفاً لشدة شماتهن بها. أي أن استخدم (في) وإيثارها عن حرف الجر (من) لأن (في) تشير إلى شيوع كلامهن في المدينة.

لماذا لم يقل (في القرية) ؟ وما الفرق بين القرية والمدينة في القرآن الكريم؟؟ إن الإجابة عن هذا السؤال تقتضي التنبيه أن المنظور الذي سيتم من خلاله التفريق بين الكلمتين لا بد أن يستقصى كل استعمالات الكلمتين، بحيث ينطبق عليها جميعاً. أي أن من أسس قبول المنظور المفرق هو الاستقراء الاستعمالي، أي انطباقه على كل الاستعمالات، وليس على بعض الأمثلة.

فما المنظور القرآني الذي يفرق بين القرية والمدينة وينطبق على كل استعمالتهما في القرآن الكريم ؟ القرية في اللغة تعني التجمع، وسميت بذلك لاجتماع الناس فيها، قرية الماء أي جمعته، والمقراة: الجفنة: سميت لاجتماع الضيف فيها أو لاجتماع الطعام، والقرية: الظهر لما اجتمع فيه من العظام، ومنها القرآن: سمي بذلك لجمعه ما فيه من الأحكام والقصص<sup>(١)</sup>، قرية الماء في الحوض: أي جمعته، وقریان الماء: مجتمعه<sup>(٢)</sup>.

(١) ابن فارس، المقاييس، انظر مادة قري.

(٢) الراغب الأصفهاني، المفردات في غريب القرآن، مادة قري.

أما المَدِينَةُ فهي كل تجمع سكاني يخضع أهله ويدين بالخضوع والطاعة لحاكم، فالمَدِينَةُ هي العاصمة التي يوجد فيها السلطان، فالمكان الذي يعيش فيه الحاكم مَدِينَةً، والمكان الذي يخلو من الحاكم قَرْيَةً.

والمكان الذي يعيش فيه العزيز لم يكن مجرد تجمع سكاني فحسب، لكنه مكان فيه ملك للبلاد، وكذلك فيه عزيز يدبر له الأمر، فهو مكان يحكمه سلطان، يدين له سكان المكان بالطاعة والخضوع، ومن هنا سماها الله عَزَّ وَجَلَّ مدينةً.

والمدينة في الوقت نفسه هي الترجمة العربية لكلمة مصر ، فهي مصر كما ينطقها أهلها ، وترجمتها في العربية : المدينة ، وتطلق على العاصمة فحسب ، ثم اتسعت لتطلق على الدولة كلها، ومازال أهلها يتوارثون خصوصية نطقها على العاصمة، فمازال أهل الدولة يقولون إذا أرادوا الذهاب إلى العاصمة: نساfer إلى مصر، لأنهم وإن سكنوا مصر الدولة يقصدون المعنى الأصلي للكلمة الذي كان لا يُطلق إلا على العاصمة.

والدليل أنها العاصمة : هو أن يوسف عزيز مصر لما أرسل من يأتي له بأهله وكانوا على الحدود مع مصر ، خرج إليهم بعد حضورهم وقال لهم : ادخلوا مصر إن شاء الله آمنين ، فهو يطلب منهم الدخول إلى مصر بعد أن قطعوا مسافة كبيرة في الدولة ، دلالة على أن مصر لم تكن الدولة ، بل العاصمة التي لها أسوار وأبواب متفرقة أراد يعقوب من بنيتها أن يدخل كل واحد منهم من باب . فمصر هي العاصمة التي معناها المدينة ، أما إذا الله التعبير عن الدولة استخدم كلمة (الأرض) ولهذا لما قال الله عَزَّ وَجَلَّ عن يوسف : { وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ }<sup>(١)</sup> لم يكن يقصد الأرض كلها ، بل يقصد الدولة التي اسمها الأرض ، وطلب يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ من الملك أن يجعله على خزائن الأرض لا على خزائن مصر ، لأنه لا يريد أن يكون على خزائن العاصمة فحسب .

(١) سورة يوسف . الآيتان (٢١، ٥٦) .

## أُمَّرَاتُ

استعمل كلمة امرأة ، ولم يستعمل كلمة (زوج) ، وفتح تاء المرأة ، قد سميت المرأة بذلك ( وكذلك المرء ) بسبب الخلق الكامل ، ولذلك قيل: المرءة كمال الرجولية، وهي أن لا تفعل في السر أمراً وأنت تستحیی أن تفعله جهراً، وأن يستطيع كل منهما الآخر، ولهذا يقال مرؤُ الطعام إذا لم يثقل على المعدة، فكان طيباً هنيئاً، وأرض مرثئة أي حسن هوائها، وسمي المرئ بذلك لأنه به يكون استمراء الطعام. وقال يهودي لعلي بن أبي طالب: لقد لَقِدَ تَزَوَّجَتِ امْرَأَةً، يُرِيدُ امْرَأَةً كَامِلَةً.

وقد تتعجب لإدخال همزة الوصل على امرأة، والميم في الأصل مفتوحة لا تحتاج همزة وصل، وأغلب ظني أنها أضيفت خشية ترك الهمزة، وهو كثير، إذ لو تركت الهمزة لأصبحت كلمة أخرى وحدث اللبس، فسكنوا الميم، وتوصلوا بهمزة الوصل، والدليل على احتياط العرب من ترك الهمزة هو أن الكلمة تعرب من مكانين<sup>(١)</sup>: الهمزة والراء التي قبلها تحرزاً من ترك الهمزة، ولذلك ستجد أن الكلمة في حالة الرفع: آخر حرفيها مرفوعان ، وفي حالة النصب مفتوحان ، وفي حالة الجر مكسوران .

والمرأة بخلاف الزوج ، فإن كان الزوج لا يستقيم إلا بمثيله ، فالمرأة هي انعدام هذا المثل ، وقد وردت المرأة في القرآن الكريم ست وعشرين مرة كلها يربطها رابط واحد هو اللازوجية ، فهي امرأة قبل الزواج كما رأينا في تعبير القرآن عن الأختين اللتين تزوج موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ إحداهما ، وهي امرأة بعد الانفصال عن الزوج سواء بالطلاق أو بالترمل بعده ، وكذلك هي امرأة إن كانت العلاقة مع رجلها تفتقد لانسجام الزوجية بافتقاد العناصر الأساسية للزواج كالتناظر العقدي بأن يكون أحدهما مؤمناً دون الآخر ، أو أن يكون أحدهما عاجزاً عن الإنجاب ، أو يكون

(١) انظر تهذيب اللغة. ج (١٥). ص (٢٠٦) (ولسان العرب. ج (١). ص (١٥٦) مادة (مرء) .

هناك سوء عشرة أو خيانة ، كل هذا مبررات لئلا يكون هناك حياة زوجية سوية فكان المرأة في زواجها تعيش اللا زوجية .

وهكذا لم تستحق امرأة العزيز لقب زوجة، لأنها عرضت نفسها على غير زوجها، فلذلك قيل عنها امرأة العزيز<sup>(١)</sup>، بل هي كذلك حتى قبل أن يعيش يوسف في بيتها، بدليل قول القرآن: { وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ لِامْرَأَتِهِ }<sup>(٢)</sup> فثمة سبب يعوق الزوجية بينهما خلاف خيانة المرأة وهو أن يكون العزيز ذاته عنيماً .

أما عن فتح تاء امرأة ، فالقرآن لا يفتحها إلا عند الإضافة المفقدة للزوج حق الزوجية، فتكون المرأة هنا كالمحتل الذي احتل مكاناً غير مكانه، وطردت الزوج، وحلت محلها. مما يقتضى إظهار المحتل وبيان اختفاء من قام باحتلاله وهو الزوجة. والتاء المفتوحة في القرآن الكريم بأكمله تشير إلى استحضار الشيء، وهنا هل تشير إلى استحضار المرأة ؟؟ وهل هي ليست امرأة ؟ نعم تشير إلى استحضار حالة ماضية أو مستقبلية للمرأة ليس مكانها الآن، ومن ثم تشير إلى اختفاء الحالة الصحيحة للمرأة، أي أنه طغيان لحالة من حالات المرأة على حالة أخرى، وهذه الحالة ليس مكانها الآن، فهي وهي متزوجة ليست امرأة، هي امرأة إن لم تتزوج أو فقدت الزوج، لكنه هنا يطلق عليها وهي متزوجة لقب امرأة، مما يفيد طغيان درجة من درجاتها على الأخرى واختفاء الأخرى. فكان من الواجب إبراز هذا المحتل وأن هذا ليس مكانه (أو زمانه) ، فكان الله عزَّ وجلَّ لا يستحضر حاضراً، لكنه يستحضر حالة من حالاته مكانها ليس الآن، ليقرر طغيانها واحتلالها ما لا حق لها.

والأمر هو نفسه لما نقول على العجوز شاباً.. فأنت هنا لن تقول أي إظهار وهو

(١) سورة يوسف، الآيات (٢١)، (٣٠)، (٥١).

(٢) سورة يوسف . الآيتان (٢١) .

ظاهر، ولكن يجب أن تعرف أن الإظهار هنا لحالة له على أخرى. والمقصود إبراز هذا الطغيان. وبيان اختفاء الزوجية بانسجاماتها العقائدية، والعفافية، والإنتاجية. فكان التركيز على إظهار المرآة لبيان اختفاء الزوجية.

### الْعَزِيزُ

ونسبت النسوة تلك المرأة إلى العزيز ، أي فضحها بنسبها لزوجها. لأن ذكر اسمها قد لا يحقق هدفهن، فقد يظن أحدهم أنها واحدة ممن يحملن هذا الاسم. لكنها نسبتها إلى منصب زوجها للتشنيع عليها ، فلم يسمّينها باسمها حتى لا يمر ذكرها مر الكرام، بل ربطنها بالاسم المشهور، وفيه تذكير أنها ذات بعل فليست بحاجة إلى هذه الفاحشة، كما أنه ليس اسم زوجها، ولكنه منصبه الرفيع مما يخلق مفارقة ليس بين القمة التي هي فيها (عزيز مصر) وبين الحضيض (عبده) بل بانقلاب تلك المسافة إلى العكس، وتبادل الأماكن، فكأن العبد هو من كان العزيز بالنسبة لها.

ولاشك أن ذكر المنصب يكشف خبيثة تلك النسوة اللاتي ربما العشق مباح عندهن، لكن لمن؟؟ فكأنهن لا يحملن عليها في الفعلة ذاتها، ولكن في المفعول المختار.

### تُرَاوِدُ

مضارع للتجدد والاستمرار، مرة بعد مرة. وفي هذا مكر من النسوة، لأنها تقرر أن المرادة لم تنته، وأنها دائمة حتى هذا الوقت. وأنها هي التي تعرض نفسها.

لم يقلن: امرأة العزيز راودت فتاها كما حدث فعلاً، بل جاءت الصيغة مضارعة للإيهام بأن ذلك ديدنها. وأنها لم تكن محاولة وانقضت، لكنها مصرة على إعادة

المحاولة حتى تصل إلى ما تريد. قال ابن القيم: أنهم أتوا بفعل المرادة بصيغة المستقبل الدالة على الاستمرار والوقوع حالاً واستقبالاً، وأن هذا شأنها، ولم يقلن: راودت فتاها. وفرق بين قولك: فلان أضاف ضيفاً، وفلان يقري الضيف ويطعم الطعام، ويحمل الكل. فإن هذا يدل على أن هذا شأنه وعادته<sup>(١)</sup>.

والمرودة مفاعلة من جهتين، إرادة برفق وتأنٍ تطلب أن تغلب إرادة مقابلة، فالصيغة تثبت محاولتها وتمنعه في الوقت نفسه، فهي تريد الوصول إليه، وهو يريد منعها، فهي تحمل إهانة لها، لأنها تكشف أنه وهو العبد لا يرضى بها على جمالها ومنصبها. ولو تتحى عن مناهضته لها، فقد انتهت المرادة لأنها تكون قد وصلت إلى ما تريد.

### فَنَاهَا

الفتى هو فترة عمرية بين الغلام وبلوغ أشده، فهي فترة تتراوح ما بين الخامسة عشرة والعشرين، وقد أمر الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ألا يقول المسلم عن عبده: عبدي، بل يقول فتاى، وبذلك يعبر المفرد عن القوي من الشباب وعن العبد، وجاء الجمع بصيغتين تتجه كل صيغة للتعبير عن أحد المعنيين. وجاء لفظ فتى عند النسبة لأحد بمعنى العبد: فقله تعالى (فَتَاهَا) يعنى عبدها وكان يوسف عبداً في بيتها، وكذلك جاء إضافة الفتى لموسى (فتاه) ليدل على أن الذي كان يصحب موسى في رحلته إلى لقاء الخضر كان عبده.

وفي الجمع: استخدمت كلمة (فتيانه) بالإضافة في سورة يوسف للتعبير عن عبيد العزيز، واستخدمت في جمع المؤنث (فتياتكم) بالإضافة للتعبير عن الإماء في نهى السادة عن إجبارهن على البغاء.

(١) التفسير القيم = تفسير القرآن الكريم لابن القيم، الجزء الأول (ص: ٢٢٧)، إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان، الجزء الثاني ص (١١٥).

عَنْ نَفْسِهِ ط

بعد أن كشف القرآن الكريم في قوله (تراود فتاها) انحدار سيدة القصر من عليائها إلى هوة سحيقة عندما تذل نفسها لأحد عبيدها، ويترفع عنها. وهي السيدة الناضجة التي يمكنها أن تحطم نفسه وهو في فوران الشباب.

يذكر متعلق المرادة (عن نفسه)، فالمرادة كان هدفها أن تفصله عن نفسه ليكون كأنه اثنان، هو: الجيش المدافع، ونفسه هي المدينة المطلوبة، وهي تعالجه لتفصله عن المدينة لتستولي عليها. والعبارة تكشف تمنعه عن سيده، وهذا فيه ما فيه من تقبيح لها وبيان أنها ليست فحسب رضيت بالعبد، بل أن العبد لا يرضى بها، ويحتاج لمحاولات منها حتى تثنيه عن موقفه.

قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا

(قد) حرف توكيد لأن ما فعلته أمر مستبعد، لا يمكن تصديقه، لهذا كان الحكم على الجوانية بالنسبة للقائلات أمر يقيني، وقد خرق بحبه شغاف قلبها، (الشغاف: غلاف القلب) أي أن العشق تمكن منها. حتى وصل إلى آخر مرحلة يمكن أن يصل إليها .

والشغاف هو غلاف القلب، لكن التعبير لم يقل: واخترق حبه شغاف قلبه، ليكون الحب قد غلب على قلبها، والتصق به، بل تجاوز القلب نفسه، لأنه ذكر أن الشغاف أصابها هي وليس قلبها فحسب، فكأنها استحالت كلها إلى قلب، وقد تسلل إلى ما تحت الشغاف، فكأنه لم يستول على قلبها فحسب، بل حال بينها وبين نفسه كلية، فهي لا تعقل سواه، ولا تحفل بعاقبة. ولأن حبه هو من سكن كل جوانحها، فقد أصبح هو السيد عليها بعد أن كانت هي سيده.

إِنَّا :

توكيد بإن، واللام لأن الموصوف يستبعد عنه تماماً هذا الوصف، وكأنهم يقولون برغم كونه نبياً إلا أنه في ضلال لأن هذا الأمر ليس وحياً، بل هو اجتهاد خطأً فيه.

وجاء نون الضمير مدغمة مع نون إن، فهذا الإدغام له قانونه الخاص في القرآن الكريم، فالقرآن يدغم إذا كان الكلام غير قابل للتكرار، ويفك النونين إذا كان الكلام قابلاً للتكرار. وهن هنا يتكلمن عن حادثة المفاجأة بانتقال سيدة القصر العليا من عليائها إلى حضيض الهاوية، فحتى لو كررت فعلتها بعد ذلك، فهن لن يكررن التفاجئ، فهذه الجلسة النسوية التي تحركت فيها النسوة من أماكنهن المتباعدات إلى التجمع عن إحداهن لن يكررنه.

لنَرَدَّهَا

أضف إلى التوكيد بإن توكيداً آخر باللام، وتغليظ التوكيد لبيان أن الموصوف يُستبعد عنه تماماً هذا الوصف، وكأنهم يقولون برغم كونه نبياً إلا أنه في ضلال لأن هذا الأمر ليس وحياً، بل هو اجتهاد خطأً فيه.

وقد تقول لماذا لم تقل النسوة: إنها لفي ضلال مبين؟ لماذا قلن إنا لنراها في ضلال مبين، لماذا تعمدن إدخال أنفسهن؟؟ ذلك لبيان شدة الضلال وأن هذا ليس فحسب الحكم عليها، ولكنه حكم ممزوج بمن حكم، فكان لا بد من استحضار الحاكم لبيان شدة إدانتها، كما فعل بالضبط في الشاهد، فلم يقل وشهد شاهد فحسب، بل قال: شاهد من أهلها، لبيان أن الحكم ليس أي حكم، ولكنه من أهلها المفترض فيه أن يقف معها، فإن وقف ضدها، فهو حكم مجرد من الهوى لأن الهوى معها هي.

فكان في الشهادة يجب إبراز من الشاهد إلى جوار شهادته لإضفاء العدالة غير القابلة للشك فيها، كذلك هنا أبرزت النسوة نفسها إلى جوار الحكم، فكأنهن يقلن نحن ولسن منزهات عن الخطيئة لا نفعل ما تفعله، فالواحدة منا ربما تقيم علاقة، لكن لا يصل بنا الأمر إلى إقامة علاقة مع عبد من عبيدنا، ولا يصل الأمر أن يترفع علينا، فالمرأة منا، هي التي تُطلب لتلك العلاقة، وتتمنع بعض الوقت، ثم توافق وكأنها تتفضل عليه. ولا يعرف بأمرنا أحد، فما بال هذه التي هي أعلى مكانة منا تتحدر هذا الانحدار، فتطلب عبداً، ويرفضها، ويذاع الأمر. فهي ليست في ضلال فحسب، بل هي في ضلال في نظر الضالات أنفسهن.

وانظر المغايرة الآتية التي تكشف سر إقحام الفاعل نفسه مع حكمه كما حدث هنا مع النسوة، فلم يكتفين بالحكم، بل أصررن على بيان أنهن، وإن كنَّ غير فضليات لا يفعلن ما فعلته، وبين حجب الفاعل لنفسه في حكمه كما حدث مع إخوة يوسف في موقف مع أبيهم، فلم يقولوا كما فعلت تلك النسوة: إنا لنرى أبانا في ضلال مبين، ولكنهم قالوا إنه لفي ضلال مبين، مكتفين بالحكم دون إقحام أنفسهم في الحكم.

(١) {إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ} <sup>(١)</sup>: لم يقل إخوة يوسف عن أبيهم: (إن أبانا يحب الصغير أكثر منا، إنا نراه في ضلال مبين) ولو قالوا ذلك لكان المعنى هم يقررون ذلك من وجه نظر خاصة، فالحقيقة أنه مستقر في الضلال. وهو أقوى من قولهم نراه، لأن هذا يعني من وجهة نظر قد تكون صحيحة أو خاطئة. لكنهم يعتقدون بذلك اعتقاداً جازماً، وهذا الاعتقاد دفعهم إلى التخلص من أخيهم.

جاء الخبر بشبه الجملة (لَفِي ضَلَالٍ) ليبين أنه مستقر في الضلال. وهو أقوى من قولهم نراه، لأن هذا يعني من وجهة نظر قد تكون صحيحة أو خاطئة. لكنهم يعتقدون بذلك اعتقاداً جازماً، وهذا الاعتقاد دفعهم إلى التخلص من أخيهم.

(١) سورة يوسف: الآية (٨)

(٢) { إِنَّا لَنَرَهَا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ }<sup>(١)</sup>: تلك وجهة نظرنا، ونحن أهلك، فنحن لا نقرر حقيقة فحسب، بل حقيقة لم يستطع الهوى أن يدفعها. والأمر نفسه مع نسوة المدينة، فلم يقلن: امرأة العزيز في ضلال مبين، بل قلن: إنا لنراها في ضلال مبين، أي نحن النسوة اللاتي نغفر للعشق نراها في ضلال مبين، ولا نجد لدينا ما يبرر لها فعلها برغم أننا مجاملات في هذه النقطة.

وربما قلن ذلك لمكانة الشاب من امرأة العزيز، فهن يبحن أن تعشق المرأة، لكن لا يمكن أن يكون المعشوق فتاها، ويطرف عنها.

جاء الخبر في صيغة فعلية، ليعبر عن وجهة نظرهم، كما يرونها. لأنهم غير معاشين لامرأة العزيز، لكنهم يحكمون عليها من خلال موقف، إن المرأة التي تعشق خادمها امرأة مضللة. فهي ليست مستقرة في ضلال، لكنها تبدو في أعينهن كذلك.

### فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ :

(في) ظرفية، لتدل على استقراره في الضلال، وإحاطة الضلال به في تلك النقطة. وهذا الضلال في نظرهن ليس العشق، ولكن اختيار المعشوق.

أما الوصف بمبين أي أي شديد الوضوح، لا يضل أحد عن ذلك، لأن صاحب العداوة لا يخفيها، بل يعلنها صراحة. قال الزجاج: المبين هو الواضح بذاته الموضح لغيره. أبان الحق من الباطل، وأبان الحلال من الحرام، وأبان النور من الظلام. وأبان طريق الهدى والخير عن طرق الضلالة والشر.

والضلال يوصف بالمبين، والبعد: فالمبين في مرحلته الأولى عندما يبدأ إبليس

(١) سورة يوسف، الآية (٣٠)

إضلاله ، وبعيد بعد أن يستحوذ على الإنسان :

• { إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ }<sup>(١)</sup> : يبدأ إبليس رحلة الإضلال، ثم بعد أن يطمئن من تجنيد نفس هذا الإنسان يترك لها أن تكمل رحلة الضلال بذاتها، فهو إضلال ثم ضلال، وقد عبّر عنها القرآن بهذا التعبير الفريد: { وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا }<sup>(٢)</sup>، فلفظ الضلال تعنى الإمعان في الضلال، أما وصف الضلال بلفظ (مبين) لأن الواصف عنده أمل أن يرجع الموصوف بالضلال عن ضلاله، فأبناء يعقوب يأملون بالتخلص من يوسف أن يستعيدوا أباهم من ضلاله، فوصفوا الضلال بالمبين ليبرر فعلتهم، ولم يوصفوه بالبعيد لأنهم يريدون إرجاعه عن هذا الضلال.

• { أَلَا إِنَّ الَّذِينَ يُمَارُونَ فِي السَّاعَةِ لَفِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ }<sup>(٣)</sup> : القائل هنا هو الله عَزَّ وَجَلَّ، ولذلك قطع في شأن الذين يمارون في الساعة بأنهم في ضلال بعيد، أي استحالة رجوعهم عنه. وفي سورة الأحزاب يعدل القرآن عن وصف الضلال بكلمة (بعيداً) التي صلحت للتعبير عن مرحلتي الضلال، الرغبة الإبلسية، والواقع الإنساني الذي لم يخيب رغبة إبليس. لكنها لا تصلح أن تكون حكماً من الله على هذا الموقف الإنساني الذي انقاد بسذاجة إلى الشيطان وحقق خطته. لهذا يعدل الله عَزَّ وَجَلَّ عن كلمة (بعيداً) إلى (مبيناً) التي تصلح للحكم على موقف الإنسان المذعن لإبليس. فهذا الضلال: ظاهر واضح.

(١) سورة يوسف: الآية (٨)

(٢) سورة النساء، الآية (٦٠)

(٣) سورة الشورى، الآية (١٨)

## ٣. مبدأ الشك :

وقد يقول البعض كأنك تستحضر منهج الشك الديكارتى ، ذلك الذى قال به د. طه حسين عميد الأدب العربى فى كتابه فى الشعر الجاهلى ، والحقيقة أن القصة ليست فى المنهج ، لكن إن تثار قضية شغلت الدنيا على تطبيق منهج الشك ، ثم نجد بعد مائة سنة أنها كانت ضجة شديدة دون أن توجد خطوة واحدة فى تطبيق المنهج .

فليس من تطبيق المنهج أن تقول : يمكننى أن أقول كذا وكذا وإن تعارض مع القرآن إذا أكد منهج الشك ذلك ، هنا تكون قد أثرت زوبعة لن تنتهى لأنك تلمح أن القرآن مخطئ ، وأنت بعد لم تصل إلى تلك النتيجة ، فقولها قبل البحث ليس من البحث العلمى ، وأنت لا تعرف هل ينتهى بحثك إلى الاتفاق مع القرآن أو لا ، فهلا بحثت أولاً ، ثم قل ما تشاء .

إذن نرى أن من تكلموا على مبدأ الشك الديكارتى أقاموا زوبعة فحسب ، ولم يطبقوه ، وما زال الشعر الجاهلى غير مقطوع بشيء يقينى فيه .

إن الأمر أشبه بمن جاء على رجل صالح ، وقال سأنقب وراءه ، فإن وجدته فاسداً فلن أحجم عن قول ذلك ، هنا ستثور الناس لاتهامه أحد المقدسين فى نظرهم ، الأمر الصحيح هو أن يبحث ويتقصّى حتى يدمغه بالفساد ثم يخرج على الناس ويصيبهم بالصدمة لما توصل إليه بالأدلة .

لذلك نحن لسنا ضد المنهج الذى يستوثق مما يصل إليه ، وقد كنت أتعجب للمعركة بين مناصري المنهج ، ومعارضيه ، كان المناصرون يقولون : وما المانع من الاستيثاق للوصول إلى الحقيقة ؟ والمعارضون يعترضون للطعن فى القرآن الكريم .

وأرى أن القضية غير ذلك : وأن القول بوجوب الاستيثاق للوصول إلى الحقيقة لا يرفضه أحد ، ومن يرفضه لا يرفضه في ذاته ، لكنه يراه حقاً يراد به باطل ، لأنه لا توجد محاولة فعلية تم فيه السعي للوصول إلى الحقيقة ، كل ما حدث هو الإعلان عن النية على إعلان النتائج وإن خالفت المقدس ، لكن هل خالفت ؟ وهل توصلت إلى أنها خالفته ؟ وماذا لو لم تخالفه ؟؟ أي حقيقة إذن في إعلان قد تصل إلى معكوسه ؟ ألا تكون مديناً بالاعتذار الشديد لو كانت النتائج معاكسة لإعلانك ؟؟ ألم يكن من الأجدر الدرس والبحث أولاً ، ثم تعلن النتائج نفسها عن نفسها ؟؟

نعم ليتهم طبقوا المنهج ، وهأنذا أطبق المذهب ذاته في القرآن الكريم لأصل إلى الحقيقة ، لكن يجب أن يعلموا أن المنهج ليس إعلاناً أن من المحتمل أن تصل لإحدى النتيجتين ، فكل بحث يحتمل أن يصل إلى إحدهما ، لكن المنهج يقتضي أن تبحث بشكل علمي مجرد ، وتصل إلى النتيجة الواحدة ، المنهج ليس زعيماً ، ليس من حقه أن تقول : من حقي أن أبحث وأن أصل إلى نتيجة متعارضة مع القرآن ، الذي من حقه أن تبحث ، وليس أن تعلن نتيجة قد لا تتحقق . فماذا لو لم تتحقق ، وتحقق العكس ، ماذا نكون وقتها قد جنينا من معركة مستنزفة وقد وصلنا إلى معكوسها ؟

أقول إننا سنضع الاحتمال موضع الفرض ، وسنضعه على مائدة البحث اللغوي ، وسأضرب مثلاً بقوله تعالى :

• ﴿ إِذْ قَالَ يُسُفُّ لِأَبِيهِ يَبَابُتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ ﴾ (يوسف) .

هناك من قال : سجد له إخوته الأحد عشر ، وأبوه وأمه اللذان رمز إليهما القرآن الكريم بالشمس والقمر . وهناك من قال : بل سجد له الإخوة فحسب ، وأنا من هؤلاء .

لا مشكلة أن يحدث اختلاف ، وهنا يأتي البحث العلمي لإثبات صحة أحد الاحتمالين ، ونفي الآخر . إن النحو يقبل الأمرين : فلو أعربت (وَأَلْسَمَسَ) معطوفاً على ما قبله فالساجدون ثلاثة عشر ، وإن أعربت مفعولاً معه أي المشاهد غير المشارك ، فهذا يعني أن الساجدين أحد عشر ، والأب والأم مشاهدان غير مشاركين في فعل السجود . فالنحو إذن يقبل كلا الاحتمالين .

ومن حيث تكريم الأب : فالرأي القائل بعدم سجود الأب تكريماً لمنزلة الأبوين ، وخاصة أن الأب نبي مثل ابنه ، ولم يرتكب جريمة ، بل فقد نظره في البكاء على فقد ابنه ، ولم يأل جهداً في البحث عن ابنه . وهذا الرأي يمكن أن يقابل : بأن الله من أراد ذلك ، فالرأيان لا يمكن لأحدهما أن يغلب على الآخر .

لكن الذي يحسم الأمر هو تفسير المنام في نهاية السورة :

• ﴿ وَرَفَعَ أَبُوبِي عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلْتُ رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴾ (يوسف) .

فرفع الأبوين على العرش ، لا يجعلهما من المشاركين في الخرّ سجوداً ، لأن الخرّ يتم من الوضع واقفاً ، ويستحيل أن يتم من الوضع قاعداً ، لأن الخرّ يحتاج إلى قدمين ثابتين على الأرض ، لكن القاعد إذا أراد أن يخر ساجداً انقلب على رأسه ، فهذا دليل أول على أن الأبوين لم يسجدا لاستحالة أن يدخلوا في التعبير { وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا } .

الدليل الثاني : قول يوسف : { وَقَالَ يَا أَبَتِ } فالحوار مع أبيه لا يصلح والأب ساجد ، لأن سجوده يعني أن يكون من بين الساجدين ، وجبهته على الأرض فكيف سيصور حوار بينه وبين ابنه وهو في هذا الوضع ؟

الدليل الثالث : الإشارة التي أشار بها يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ إلى الساجدين ،

وقد أشارها إلى أبيه : { هَذَا تَأْوِيلُ رُءْيَايَ مِنْ قَبْلُ } ، يشير بهذا إلى السجود ، فكيف يشير لأبيه إن كان أبوه ساجداً لا يرى إشارته .

الدليل الرابع : تكرار الفعل رأيت ، فقد جاء في الآية ( إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ ) ثم قال ( رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ ) في سياق واحد لا يحتاج تكرار الفعل لذكر الحال ، إذ يمكن ذكر الحال مع الفعل الأول : لكن لأن الرؤيا كانت على مرتين : الأولى رأى ثلاثة عشر ذاتاً ، والثانية رأى الحدث من أحد عشر فحسب ، فهنا كرر الفعل ليبين أن الرؤية الأولى كانت للذوات دون حدث ، والرؤية الثانية كانت لفعل بعض الذوات دون البعض .

ويدعم ذلك اختلاف صيغة الحال ، في الرؤيا عن تطبيقها : فاستخدم في الرؤيا : { رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ } ، واستخدم في التطبيق : { وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا } ذلك لأن ساجدين هي صورة السجود ، بينما ( سُجَّدًا ) هي ديناميكية الفعل ، أي كأنك تشاهد الحركة من الوضع واقفاً إلى الوضع ساجداً ، فالأولى كمن يرى صورة في مجلة ، والثاني كمن يشاهد مشهداً في تلفاز .

فيوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ في منامه رأى صورتين : صورة الذوات أولاً واقفين ، فلا يصلح الفعل (ساجدين) له ، ثم رأى صورة أخرى وهي الذوات في وضع السجود . أما عند حدوث المشهد أمامه ، فقد رأى الإخوة يقومون بفعل السجود من الوضع واقفاً إلى الوضع ساجداً . وهكذا نرى أن الفصل بين الرؤيتين دليل آخر على اختلاف الرؤيتين ، وأن الشمس والقمر في الرؤية الأولى دون الثانية . وكونهما مفعولاً معه يفيد أنهما في الرؤية لكن دون مشاركة للفعل الذي يحدث .

الدليل الآخر : هو جغرافية المشهد ، فإن يجلس الأبوان على العرش ، فهذا يعني أن الإخوة لا يمكن أن يكونوا في مقابلتها وإلا كان سجودهم معاً هو سجود لكل منهما للآخر ، والمسجود له هو يوسف فحسب ، ولن يكونوا بالطبع وراء العرش

وإلا حجب بعضهم عن السجود ، فليس إلا أحد جانبي العرش ، فيكون الإخوة في جانبه الأيمن أو الأيسر ويوسف في الجانب الآخر ، وهذا يقتضي أن الجهة منفكة ، أي أننا أمام مربع ينقص ضلعاً : فلا يمكن أن يسجد ضلعان لثالث . فيوسف في مقابلة الإخوة فحسب ، وليس في مقابلة أبويه ، فالسجود له سيكون من مقابليه فحسب .

هذا مثال على تطبيق المنهج ، بعدها يمكن أن تقطع بأحد الرأيين دون الرأي الآخر ، ولا يصلح أن نظل نقول لمن قال بأن الجميع سجد ، هذا لا يصح ، فلماذا يسجد الأب لابنه ؟؟ هذا كلام لا دليل عليه .

ولاشك أن هذا المنهج يعتمد آلية جوهرية هي إجابة السؤال : ( ماذا لو كنت على خطأ ؟؟ ) ويجرنا هذا إلى تمحيص الروايات ، وعدم اعتمادها بقراءة غير مبررة ، فلا بد من دراسة النص بشكل مجرد ، ثم بعد ذلك فرز الروايات والاستئناس بها وليس الاعتماد عليها ، واعتماد مبدأ ماذا لو كانت غير صحيحة ؟؟ لقد درست كتباً كثيرة في بحثي عن ذي القرنين فوجدت نفسي في تيه أشبه بتيه بني إسرائيل ، لا يملك المبحر فيه إلا أن يخبط خبط عشواء في الظلام ، فإذا خرجت منه ربما ترى النور . ولا يمكن بحال أن يصل الأمر أن ينسب أحدهم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم حديثاً يقول فيه إن الاسكندر المقدوني هو ذو القرنين . وحدت ولا حرج عن كتب التراث وهي تتناول الذبيح فتجدها أكثر إسرائيلية من كتب بني إسرائيل في نسبة الذبيح لإسحاق عَلَيْهِ السَّلَامُ . وكذلك في سورة يوسف وذكر أولاده بينما القرآن يصفه بأنه هلك ، وهلك في سورة النساء يفسرها القرآن: ليس له ولد ، كذلك الحكايات الكثيرة عن ذبح يحيى عَلَيْهِ السَّلَامُ على يد غانية ، والقرآن بكلمة واحدة يكذب أنه يموت مذبوحاً أو مقتولاً ، يقول: { وَسَلَّمْ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا } (١) ، أي أنه سيموت ولا يقتل ، وكذلك سيموت في سلام .

(١) سورة مريم . الآية (١٥)

لقد وجدت رواية من الروايات في سورة يوسف ؟؟

وَرَوَى عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ يَزِيدَ بْنِ أَبِي فَرَوَةَ: أَنَّ يَعْقُوبَ عَلَيْهِ السَّلَامُ كَتَبَ كِتَابًا إِلَى يُوسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ حِينَ حَبَسَ بَنِيَامِينَ: مِنْ يَعْقُوبَ إِسْرَائِيلَ اللَّهُ ابْنِ إِسْحَاقَ ذَبِيحِ اللَّهِ ابْنِ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلِ اللَّهِ إِلَى مَلِكِ مِصْرَ، أَمَا بَعْدُ، فَإِنَّا أَهْلُ بَيْتِ وَكُلِّ بَنَى الْبَلَاءِ أَمَا جَدِّي إِبْرَاهِيمَ فَشَدَّتْ يَدَاهُ وَرَجَلَاهُ وَأُلْقِيَ فِي النَّارِ، فَجَعَلَهَا اللَّهُ عَلَيْهِ بَرْدًا وَسَلَامًا، وَأَمَا أَبِي فَشَدَّتْ يَدَاهُ وَرَجَلَاهُ وَوَضَعَ السُّكَيْنَ عَلَى قَفَاهُ، فَفَدَاهُ اللَّهُ، وَأَمَا أَنَا فَكَانَ لِي ابْنٌ وَكَانَ أَحَبَّ أَوْلَادِي إِلَيَّ فَذَهَبَ بِهِ إِخْوَتُهُ إِلَى الْبَرِّيَّةِ ثُمَّ أَتَوْنِي بِقَمِيصِهِ مُلَطَّخًا بِالْدَمِ، فَقَالُوا: قَدْ أَكَلَهُ الذَّنْبُ، فَذَهَبَتْ عَيْنَايَ مِنَ الْبُكَاءِ عَلَيْهِ، ثُمَّ كَانَ لِي ابْنٌ وَكَانَ أَخَاهُ مِنْ أُمِّهِ، وَكُنْتُ أَسْأَلُ بِهِ وَإِنَّكَ حَبَسْتَهُ وَزَعَمْتَ أَنَّهُ سَرَقَ، وَإِنَّا أَهْلُ بَيْتٍ لَا نَسْرُقُ وَلَا نَلْدُ سَارِقًا، فَإِنْ رَدَدْتَهُ إِلَيَّ أَقْرَ اللَّهُ عَيْنِكَ وَلَا أَحْزَنَ قَلْبِكَ، وَإِلَّا دَعَوْتُ عَلَيْكَ دَعْوَةَ تَرْدِكَ السَّابِعِ مِنْ وَلَدِكَ، فَلَمَّا قَرَأَ يُوسُفُ الْكِتَابَ لَمْ يَتِمَّا لَكَ الْبُكَاءِ

هذه الرواية ذكرت في كثير من التفاسير: وفي الرواية ما يفيد أن الذبيح إسحاق مرتين، كما أن في الرواية خطأ شرعي لأن نبي الله سيدعو دعوة تصيب السابع من ولده مما يتعارض مع قانون الله أنه لا تزر وازرة وزر أخرى.

تلك الرواية إذن غير صحيحة، ومع ذلك تناقلها المفسرون، ولم يقل أحد منهم: ماذا لو كانت الرواية غير صحيحة؟ وانظر من ذكرها: البغوي<sup>(١)</sup>، السمعاني<sup>(٢)</sup>، الزمخشري<sup>(٣)</sup>، الجوزي<sup>(٤)</sup>، الرازي<sup>(٥)</sup>، الخازن<sup>(٦)</sup>، النيسابوري<sup>(٧)</sup>، الواحدي

(١) تفسير البغوي - إحياء التراث (١/٢٠٥١).

(٢) تفسير السمعاني (٣/٦٠).

(٣) تفسير الزمخشري = الكشف عن حقائق غوامض التنزيل (١/٥٠١).

(٤) زاد المسير في علم التفسير (٢/٤٦٨).

(٥) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير (١٨/٥٠٤).

(٦) تفسير الخازن = لباب التأويل في معاني التنزيل (١/٥٥١).

(٧) تفسير النيسابوري = غرائب القرآن و رغائب الفرقان (٤/١٢١).

(١)، أبو السعود (٢)، الألوسي (٣) الثعلبي (٤)، ووصل الأمر عند بعضهم أن توقف عن القول بأن الذبيح هو إسماعيل بسبب تلك الرواية، وقال صاحب إعراب القرآن وبيانه: وعلى افتراض عدم صحة هذا الكتاب فننفض العاطفة تدعو لإثباته (٥).

ولم يرد الرواية إلا القليل منهم البيضاوي في سياق إثباته أن الذبيح إسماعيل، قال: والأظهر أن المخاطب إسماعيل عَلَيْهِ السَّلَامُ لأنه الذي وهب له أثر الهجرة ولأن البشارة بإسحاق بعد معطوفة على البشارة بهذا الغلام، ولقوله عليه الصلاة والسلام «أنا ابن الذبيحين» فأحدهما جده إسماعيل والآخر أبوه عبد الله، فإن جده عبد المطلب نذر أن يذبح ولداً إن سهل الله له حفر زمزم أو بلغ بنوه عشرة، فلما سهل أقرع فخرج السهم على عبد الله ففداه بمائة من الإبل، ولذلك سنت الدية مائة ولأن ذلك كان بمكة وكان قرنا الكبش معلقين بالكعبة حتى احترقا معها في أيام ابن الزبير، ولم يكن إسحاق ثمة ولأن البشارة بإسحاق كانت مقرونة بولادة يعقوب منه فلا يناسبها الأمر بذبحه مراهماً، وما روي أنه عليه الصلاة والسلام سئل أي النسب أشرف فقال: يوسف صديق الله بن يعقوب إسرائيل الله بن إسحاق ذبيح الله بن خليل الله فالصحيح أنه قال: «يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم» والزوائد من الراوي. وما روي أن يعقوب كتب إلى يوسف مثل ذلك لم يثبت (٦)، وسبقه ابن كثير حيث قال: عن حديث الأحنف بن قيس الذي جاء فيه أن إسحاق بذل مهجة دمه: وهذا مرسل، وفيه نكارة، فإن الصحيح أن إسماعيل هو الذبيح، وقال عن هذه الرواية: حديث طويل لا يصح (٧).

وإلى جوار أن تلك الرواية تدس السم في العسل، وتقول مكررة أن الذبيح إسحاق، وتجعل نبي الله يخالف قاعدة شرعية بالألتزر وازرة وزر أخرى، يخالف

(١) التفسير الوسيط للواحدى (١٢٧ / ٢)

(٢) تفسير أبي السعود = إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم (٣٠٤ / ٤)

(٣) تفسير الألوسي = روح المعاني (٤٦ / ٧)

(٤) تفسير الثعلبي = الكشف والبيان عن تفسير القرآن (٢٥٢ / ٥)

(٥) إعراب القرآن وبيانه (٤٩ / ٥)

(٦) تفسير البيضاوي = أنوار التنزيل وأسرار التأويل (١٥ / ٥)

(٧) تفسير ابن كثير سلامة (٤٠٥ / ٤)

أيضاً السرد القرآني الذي يكشف أن يعقوب تولى عن أولاده وابتضت عيناه من الحزن ، ثم أرسلهم ليتحسسوا من أمر يوسف وأخيه ، فلما وصلوا إلى يوسف هذه المرة كشف لهم يوسف نفسه ، فلم يكن هناك مجال لكتاب أو غيره .

ولماذا لا نعمل مبدأ التمهيص ، وثمة إسرائيليّات تحفل بها كتب التراث الإسلامي ، من ذلك ما رددوه بأن لوطاً عَلَيْهِ السَّلَامُ ابن أخي إبراهيم نقلاً عن العهد القديم :

«وَلَدَ تَارِحَ أَبْرَامَ وَنَاحُورَ وَهَارَانَ. وَوَلَدَ هَارَانَ لُوطًا»<sup>(١)</sup> .

وقد مضى كثيرون من المفسرين المسلمين وراء هذا القول : قال ابن أبي حاتم إنّه أخو سارة<sup>(٢)</sup> وهو يجعل سارة ابنة عم إبراهيم<sup>(٣)</sup> إذن هو ابن عمه ، ثم قال في موضع آخر إنّه ابن أخيه<sup>(٤)</sup> أي أنه جعله مرة ابن عمه ، وأخرى ابن أخيه . أما الثعلبي فيرى أن لوطاً ابن أخي إبراهيم<sup>(٥)</sup> .

وكذلك فعل الماوردي<sup>(٦)</sup> ، والماتريدي<sup>(٧)</sup> ، والسمعاني<sup>(٨)</sup> ، ومحمد متولي الشعراوي<sup>(٩)</sup> ، وابن عاشور<sup>(١٠)</sup> ، والمراغي<sup>(١١)</sup> ، وصاحب المنار<sup>(١٢)</sup> ، وأبو حيان<sup>(١٣)</sup> ،

(١) سفر التكوين [١١ : ٢٧] ، وانظر أيضاً سفر التكوين [١١ : ٣١] ، سفر التكوين [١٢ : ٥] ، سفر التكوين [١٢ : ١٤]

(١) تفسير ابن أبي حاتم - (١٦٩٠ / ٥) . وأيضاً (١٨٣٧ / ٦)

(٢) تفسير ابن أبي حاتم - (٣٠٥٠ / ٩)

(٣) تفسير ابن أبي حاتم - (٣٠٥٠ / ٩) . وأيضاً (٣٠٥١ / ٩)

(٥) تفسير الثعلبي = الكشف والبيان عن تفسير القرآن (١٦٧ / ٤) . وأيضاً (٢٥٨ / ٤) . وأيضاً (٢٨٣ / ٦) . وأيضاً (٢٧٦ / ٧) . وأيضاً (١٥٢ / ٨) .

(٦) تفسير الماوردي = النكت والعيون (٤٥٤ / ٣) . (٢٨١ / ٤)

(٧) تفسير الماتريدي = تأويلات أهل السنة (١٥٣ / ٦)

(٨) تفسير السمعياني (٣٩٢ / ٣)

(٩) تفسير الشعراوي (١١ / ٦٦٣٣) . (١٣ / ٧٧١٨) . (١٥ / ٩٥٨٧) . (١٨ / ١١١٣٠) . (١٨ / ١١١٤٠) . (١٨ / ١١١٤٧) . (١٨ / ١١١٤٨)

(١٠) التحرير والتنوير (٥ / ٨٩) . (٧ / ٣٤٣) . (٧ / ٣٤٩) . (١٩ / ١٥١) . (١٩ / ١٧٨)

(١١) تفسير المراغي (٨ / ٢٠٣) . (١٧ / ٥٢) . (١٩ / ٩٧) . (٢٠ / ١٣١) . (٢٧ / ٥)

(١٢) تفسير المنار (٨ / ٤٥٣)

(١٣) البحر المحيط في التفسير (٤ / ٥٧٦) . (٥ / ٩٩) . (٥ / ١٠٢) . (٧ / ٤٥٢) . (٧ / ٤٥٣)

والألوسي<sup>(١)</sup> والشوكاني<sup>(٢)</sup>، وابن عجيبة<sup>(٣)</sup>، والسيوطي<sup>(٤)</sup>، والبقاعي<sup>(٥)</sup>،  
والخازن<sup>(٦)</sup>، والقرطبي<sup>(٧)</sup>، والبيضاوي<sup>(٨)</sup>، والرازي<sup>(٩)</sup>، والبغوي<sup>(١٠)</sup>، وابن كثير<sup>(١١)</sup>،  
والزحيلي<sup>(١٢)</sup>، وصاحب فتح البيان<sup>(١٣)</sup> وأبوزهرة<sup>(١٤)</sup> والجزائري<sup>(١٥)</sup> وسيد  
طنطاوي<sup>(١٦)</sup> ثم نسب الرأي في واحدة إلى ابن كثير<sup>(١٧)</sup>

والأمر نفسه فعله مكِّي بن أبي طالب في الهداية إلى بلوغ النهاية<sup>(١٨)</sup> وفي موضع  
آخر (في الصفحة التالية) يقول عنه ابن أخته<sup>(١٩)</sup>. وكرَّر الأمر نقلاً عنه صاحبُ  
اللباب<sup>(٢٠)</sup>، ثم ذكر أنه ابن أخيه<sup>(٢١)</sup> ونقل عنه أيضاً صاحبُ الدر المنصون<sup>(٢٢)</sup>.

- 
- (١) تفسير الألوسي = روح المعاني (٤/ ٤٠٦) . (٦/ ٢٩٤) . (٩/ ٦٦)  
(٢) فتح القدير للشوكاني (٢/ ٢٥٣) . (٣/ ٤٩٢) . (٤/ ٢٣٠)  
(٣) البحر المديد في تفسير القرآن المجيد (٢/ ١٤١) . (٢/ ٢٣٧) . (٢/ ٢٣٧) . (٤/ ٢٩٧)  
(٤) الدر المنثور في التفسير بالمتأثور (٣/ ٤٩٥) . (٤/ ٤٤٨) . (٥/ ٦٤٢)  
(٥) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور (٢/ ١٦٩)  
(٦) تفسير الخازن = لباب التأويل في معاني التنزيل (٢/ ٢٢٥) . (٣/ ٢٣١)  
(٧) تفسير القرطبي (٦/ ١٦) . (٧/ ٣١) وكرره مرة أخرى في الصفحة نفسها (٧/ ٣١)  
(٨) تفسير البيضاوي = أنوار التنزيل وأسرار التأويل (٣/ ٢٢)  
(٩) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير (٢٢/ ١٦٠)  
(١٠) تفسير البغوي - إحياء التراث (٢/ ١٤١) . (٢/ ٢١٣) . (٣/ ٢٩٧) . (٣/ ٥١٠)  
(١١) تفسير ابن كثير ت سلامة (٣/ ٢٩٨) . (٥/ ٣٥٤) . (٦/ ١٥٧) . (٦/ ٢٧٢)  
(١٢) التفسير الوسيط للزحيلي (٢/ ١٠٦١) . (٢/ ١٢٢٥) . (٢/ ١٥٩٧) . (٣/ ١٩٥٨) . (٣/ ٢٥٠٤) . (٣/ ٢٥٠٤) . التفسير  
المنير للزحيلي (٦/ ٣٣) . (٦/ ٣٧) . (٧/ ٢٧٨) . (٧/ ٩٠) . (١٧/ ٩٢) . (١٩/ ٢٠٥) . (٢٠/ ٢٢٤) . (٢٠/ ٢٢٧) . (٢٠/ ٢٣٢)  
(١٣) فتح البيان في مقاصد القرآن (٤/ ٤٠٢)  
(١٤) زهرة التفاسير (٥/ ٢٥٧٤)  
(١٥) أيسر التفاسير للجزائري (٢/ ١٩٨) . (٢/ ٥٦١) . (٢/ ٥٦٣)  
(١٦) التفسير الوسيط لطنطاوي (١١/ ٢٩) . (١١/ ٣٠) . (١١/ ١٢١)  
(١٧) التفسير الوسيط لطنطاوي (٥/ ٣١٤)  
(١٨) الهداية إلى بلوغ النهاية (٧/ ٤٧٨١)  
(١٩) الهداية إلى بلوغ النهاية (٧/ ٤٧٨٢)  
(٢٠) اللباب في علوم الكتاب (٨/ ٢٦٥)  
(٢١) اللباب في علوم الكتاب (٨/ ٢٦٥) . (٨/ ٢٦٨) . (١٣/ ٥٤٢) . (١٣/ ٥٤٣)  
(٢٢) الدر المنصون في علوم الكتاب المكنون (٥/ ٢٧)

أما السمرقندي فقال إنَّه ابن أخيه وقال أيضاً : ويقال : ابن عمه <sup>(١)</sup> . وقال الزمخشري إنه ابن أخته <sup>(٢)</sup> .

وقال الثعالبي هو ابن أخيه، وقيل: ابن أخته، ويتخرَّج ذلك عند مَنْ يرى الخال أباً <sup>(٣)</sup> ، وفي موضع آخر اقتصر على أنه ابن أخيه <sup>(٤)</sup> ، وفي بيان المعاني ذكر أنه ابن أخته <sup>(٥)</sup> ، أما ابن عطية فقال بالأمرين : هو ابن أخيه وقيل ابن أخته <sup>(٦)</sup> ثم تعامل بعد ذلك على أنه ابن أخيه <sup>(٧)</sup> ثم رجع إلى القولين ثانية <sup>(٨)</sup> .

وهكذا كأن الرأي لم يصبح خاصاً بأهل الكتاب ، بل ذكره علماء المسلمین ، لا أقول معظمهم ، بل أكاد أقول كلهم . وهم في ذلك لا يقولونه عن مصدر من كتاب ولا سنة ، ولكنهم يروون ما ذكره أحبار أهل الكتاب .

ولأن القرآن الكريم لم يقل بذلك ، فكان التساهل في الانجراف وراء ما قاله أهل الكتاب دون تمحيص أمرٍ خطير ، يزيده خطورةً أن المناقير وراء الرأي غير الممحص هم صفوة علماء الأمة ، وهم قداسة عند المسلمين ، مما يكسب الرأي الخاطئ قداسة من قدائليه ، ويجعل الكثير يقبلونه بحجة أن قائله هذا العلامة الإمام الحجة ، وليس ببعيد عنا وصف الله لبعض الذين آمنوا في عهد الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بأنهم ساعون للمنافقين : { لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَا أُضْعِفُوا خَلْقَكُمْ يَبْغُونَكُمْ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّعُونَ لَهُمْ } <sup>(٩)</sup> .

لاحظ أن الخطاب للذين آمنوا ، ويقول ( لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ ) ، ويقول : ( وَفِيكُمْ سَمَّعُونَ

(١) تفسير السمرقندي = بحر العلوم (٢/ ١٦٢)

(٢) تفسير الزمخشري = الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل (٣/ ٤٥١)

(٣) تفسير الثعالبي = الجواهر الحسان في تفسير القرآن (٢/ ٤٨٩)

(٤) تفسير الثعالبي = الجواهر الحسان في تفسير القرآن (٣/ ٥٢)

(٥) بيان المعاني (٤/ ٣١٥) . (٤/ ٣٢٣) . (٤/ ٤٧٣)

(٦) تفسير ابن عطية = المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز (٢/ ٣١٦)

(٧) تفسير ابن عطية = المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز (٣/ ١٨٩) (٤/ ٨٩)

(٨) تفسير ابن عطية = المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز (٤/ ٤٨٥)

(٩) سورة التوبة . الآية (٤٧) .

لَهُمْ) فالضمير (فيكم) في المرتين يرجع للذين آمنوا، أي أن كثيراً حتى من الصالحين يتقبلون ما يقال دون تمحيص، فما بالك بعوام الناس!

ولذلك لما طرح أحدهم تلك المقولة عن لوط بأنه ابن أخي إبراهيم، سألته: فلماذا إذن لم ينسب القوم إلى إبراهيم، ويقولون عنهم: قوم لوط؟؟ وطبعاً لا إجابة لأن القول زبد يحمل في بنيته الذهاب جفاء، ثم واصلت طرح الأسئلة التي لا يصمد القول لها: ألم يقل الله عن قوم إبراهيم: {فَارَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَسْفَلِينَ} (١)، {وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ} (٢٠) وَتَجَنَّبَهُ وَلُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَرَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ} (٢)، فهذا يعني نجاة إبراهيم عليه وهلاك قومه، وإن لم يكونوا قد أهلكوا، فما الحاجة لإرسال رسول إليهم بعد إبراهيم؟؟ أسيجح فيما لم ينجح إبراهيم فيه؟؟ وكيف يُرسل لوطُ تحديداً إليهم بعد ذلك وهو الذي هاجر إلى ربه مع إبراهيم من تلك الأرض فكيف يرجع إليها رسولاً ويعيش بينهم؟؟ ثم قلت له: أليس إبراهيم كان في العراق، ولوط في سدوم وعمورة؟؟ فكيف يكون القوم الواحد في مكانين؟؟

وهنا يقول لك: لا، هما مكانان، بعد هجرتهما من العراق أرسل لوطُ إلى سدوم وعمورة؟؟ لكن القرآن يؤكد أن لوطاً في سدوم وعمورة كان بين قومه، بدليل قوله لهم {وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ} (٣)، ومناداته لهم بنسبته إلى نفسه {قَالَ يَنْقُومِ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي} (٤) وبدليل نسبته إليهم {قَوْمِ لُوطٍ} في القرآن سبع مرات، وبدليل نسبته إليهم بكلمة الأخ: {إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطُ} (٥)، فإن كان هؤلاء قوم لوط الذين انتقل إليهم، فأى علاقة له بقوم إبراهيم؟؟ أكانوا أيضاً قومه، وكلا القومين في مكان مختلف؟؟ المنطق العقلي يقرر أن قوم الخبائث إن كانوا قوم لوط

(١) سورة الصافات. الآية (٩٨).

(٢) سورة الأنبياء. الآية (٧٠) - (٧١).

(٣) سورة الأنبياء. الآية (٧٠) - (٧١).

(٤) سورة هود. الآية (٧٨).

(٥) سورة الشعراء. الآية (١٦١).

كما وصفهم القرآن الكريم (سبع مرات) وكما ناداهم لوط عَلَيْهِ السَّلَامُ ، وكما وصفه القرآن بأنه أخوهم ، فلا يمكن أن يكون قوم إبراهيم الذين هاجر عنهم أيضاً قوم لوط .

وكيف يكون قوم إبراهيم قومه وينسبون إليه ولا ينسبون إلى إبراهيم ؟؟ ، حتى إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ يعترف أنهم قوم لوط لا قومه : { فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَىٰ يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ }<sup>(١)</sup> وإن لم تكف كل تلك الأدلة على أن لوطاً من قوم غير قوم إبراهيم ، ومن ثم فمن المستحيل أن يكون إبراهيم عمه ، فإليك قوله تعالى : { وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ }<sup>(٢)</sup> ، إن العطف يقطع بأنهما قومان .

ولاشك أن اللغة وأسرار القرآن ستكسب كثيراً لو طبقنا مبدأ التمهيص ومحاولة القول : ماذا لو كان هذا الرأي غير صحيح ؟؟ فإن كان صحيحاً فما ينفع الناس يمكث في الأرض ، فلن يزيد الحك الذهب إلا لمعاناً ، وإن كان غير صحيح فما حاجتنا إلى أن نظل على وهم لوقت أطول ، ولعلك تقول لكن وصولنا إلى الحق مع الاختلاف مع رأي عالم كبير سابق يجر علينا هجوم الناس ، وأقول : الحق أكبر من الجميع ، ونحن لا نعرف الحق بالرجال ، لكن نعرف الرجال بالحق .

وأرى أن ما فعله البعض من نقل كل العلم خوفاً أن يضيع قد اضطره أن ينقل أشياء خاطئة دون تمهيص بسببها جس الخوف من ضياع العلم ، لذلك كان همه أن يثبت ما وصل إلى يده من علم تحرزاً من ضياعه ، وأرى أن الأولى من التحرز من ضياع العلم التحرز من إثبات غير المتيقن من صدقه ، وأن ضياع كثير من العلم أهون من خلط الذهب بالتراب ، لأن التراب يكتسب قداسة لكثير من الوقت لأن قائله له مكانته .

وإن كان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : نحن أولى بموسى من يهود ، كذلك أرى أننا بتطبيقنا للمبدأ بالفعل أولى بهذا المنهج ممن أعلنوه ولم يطبقوه ، وفي النهاية منشودنا هو الحقيقة .

(١) سورة هود . الآية (٧٤) .

(٢) سورة الحج . الآية (٤٣) .

## ٤. الرسم القرآني :

أنزل القرآن الكريم على النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مُنْجَمًا أَي مَفْرَقًا على ثلاث وعشرين سنة . والقرآن الكريم يستعمل في التعبير عن التوراة والإنجيل الفعل (أنزل) لأن الله عَزَّ وَجَلَّ أنزل كلا الكتابين مرة واحدة وليس على أجزاء كالقرآن الكريم .

ويستعمل الفعل (أنزل) ، ( نَزَّلَ ) للتعبير عن القرآن الكريم . وذلك لأن القرآن الكريم مرَّ بمرحلتين في النزول ، أنزل من اللوح المحفوظ في السماء الأولى إلى السماء السابعة مرة واحدة ، فقد أنزله جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ كاملاً من هذه السماء إلى تلك ، وهنا نجد أنه تم دفعة واحدة ، ولذلك عَبَّرَ القرآن الكريم عن تلك المرحلة بلفظ (أنزل) :

﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ مُبْرَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ﴾ (الدخان) .

﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ﴾ (القدر) .

ثم بعد ذلك كان جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ ينزل على محمد صلى الله عليه وسلم تبعاً للحادثة ما تيسر من القرآن الكريم ، فهنا القرآن ينزل على دفعات ، ولهذا استعمل الفعل (نزل) .

﴿ وَقُرْءَانًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ نَزِيلاً ﴾ (الإسراء) .

وقد نزل القرآن الكريم باللغة العربية الفصحى ، وهي إحدى اللغات السامية برغم تحفظي على الاسم ، واللغات السامية من التشابه بحيث يمكن القول إن كلهن لهجات للغة واحدة ، وهذا ما مكن إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ من التنقل بين العراق والشام ومصر والحجاز وأن يتفاهم مع جميع سكان تلك الأقطار<sup>(١)</sup> وقد

(١) د. عبد الصبور شاهين ، عربية القرآن ، ص ٢٨ .

انفردت العربية من بين أخواتها بميزة هي عزلتها في بيئاتها الصحراوية ، لذلك ظلت أقرب أخواتها الساميات إلى اللغة الأم لأنها احتفظت بعناصر انقرضت من أخواتها مثل ظاهرة الإعراب<sup>(١)</sup> .

يميل العلماء إلى أن اللغة الفصحى هي لغة قريش ، وأن وجود الكعبة بها مكن لها السيادة على اللغات ، وكذلك سوق عكاظ . وهي آراء تقوم على التخمين ، ولعل أدق الآراء في ذلك هو رأي الدكتور عبده الراجحي الذي رأى أن إلى جوار اللهجات المختلفة " كانت هناك لغة عربية مشتركة تكونت على مر الزمن بطريقة لا سبيل لنا الآن إلى تبينها ، وهذه اللغة المشتركة لا تنتسب إلى قبيلة بذاتها لكنها تنتسب إلى العرب جميعاً مادامت النصوص الشعرية والنثرية لا تكاد تختلف فيما بينها ، وهذه النصوص ليس قرشية أو تميمية أو هذلية فقط ، بل هي من قبائل مختلفة مما يدل على أن هذه اللغة المشتركة هي التي كان الأدباء يصطنعونها في فنهم القولي " <sup>(٢)</sup> ويقول " ومع وجود هذه اللغة المشتركة احتفظت اللهجات المختلفة ببعض خصائصها " لغة فصحى عامة مشتركة بين القبائل يفهمها الجميع ، بدليل أن القصائد الجاهلية قبل الإسلام كانت من قبائل مختلفة ، وتجمعها سمات مشتركة . فلما أنزل القرآن أدخل بعض خصائص لهجة قريش في اللغة المشتركة <sup>(٣)</sup> . أي أن لغة القرآن هي اللغة العربية الفصحى مضافاً إليها بعض خصائص لهجة قريش . وهنا يمكن أن نضيف العوامل التي قيلت في سيادة لغة قريش إلى أن هذه العوامل ساعدت على تقبل بعض خصائص اللهجة إلى اللغة العربية الفصحى المشتركة.

ويمكننى القول إن العربية على قدر مستخدمها ، فمهاارة المستخدم هي التي تكشف قدرات اللغة ، فالشاعر يخرج من اللغة تعابير لا يستطيع غيرها أن يخرجها ، وما زالت اللغة الإنجليزية تتيه بشكسبيرها لأنه كشف عن قدرات لم يكونوا

(١) د. عبد الصبور شاهين ، عربية القرآن ، ص ٢١ .

(٢) انظر : عبده الراجحي ، اللهجات العربية في القراءات القرآنية ، ص ٦٠ .

(٣) انظر : عبده الراجحي ، اللهجات العربية في القراءات القرآنية ، ص ٦٠ .

يعرفونها فيها ، واللغة العربية قد أخرج مكنوناتها بعض الشعراء العظام ، ثم جاء القرآن ليخرج كل أسرار العربية ، ويرسخ قواعد هي في مقدور العربية ، لكن لم يكن أحد يعرفها ، ومن ذلك تقرير قواعد الفرق بين إنما ، والنفي والاستثناء ، ومتى يستخدم هذا ويستخدم ذاك ، وومن ذلك الفاء بعد الطلب متى تنصب ومتى ترفع ، وكانت العرب تستعملها في النصب ويسمونها فاء السببية ، وكذلك إلغاء ظاهرة الترادف ، والتأكيد على أن كل لفظ يحمل إشعاعاً معيناً يجعل المترادفات لا تصلح أن تحل محل بعضها البعض ، فأتى خلاف جاء ، وجلس خلاف قعد ، ونزل خلاف أنزل ، خلاف نزل ..

فالقرآن لا يخضع لقواعد العربية ، بل هو يقرر دستورها ، لأنه أحسن مستعملها وأشدهم إخراجاً لكنوزها ، فمنه تستمد قوانين العربية .

ولقد ظل العلماء يحاولون أن يوفقوا تعابير القرآن مع قوانين اللغة ، على الرغم أن قوانين اللغة استمدت من استعمال الشعراء . ومن ثم كان يجب أن يواصلوا استمداد قوانين اللغة من القرآن كما استمدوها من غيره من شعراء العربية ، لكن شعراء العربية حجة في التقنين اللغوي بصفتهم مستعملين لها ، فما يقولونه يصبح قانوناً ، أما القرآن الكريم فيجب قياسه على ما قبله ، ما انطبق منه على قوانين العربية فهو مقبول ، وما لم ينطبق فهو شبهة يجب تطويعها بطريقة ما ، ولو طبق هذا الأمر مع أي شاعر جاهلي ، لاستبعدت حجته ، لأنه أتى بحجة لم تكن فيمن قبله . لكن يكفي أن يستعملها لتكون حجة . لذلك نرى أن الواجب أن ننظر إلى العلاقة بين اللغة العربية والقرآن نظرة معاكسة ، فبدلاً أن نطبق قوانين العربية المستمدة من الاستعمالات اللغوية على القرآن ، نجعل القرآن من ضمن المستعملين ، ونستمد منه قوانين تستفيد منها العربية ، خاصة أنه أعجز بلغاء العربية وعجزوا أن يأتوا بمثل جزء يسير منه ، فقد ثبت أن لا أحد يستطيع أن يجاري هذه القدرة الاستعمالية ، لذلك دعونا نتجاوز الرغبة في إثبات عربية القرآن ، ونقرر أن القرآن هو أول النصوص التي يمكن أن تخرج قوانين تضاف إلى اللغة لم تكن موجودة

من قبل ، من هذه القوانين : قوانين دلالية ، فلا لفظ في القرآن يمكن أن يسد مكان لفظ آخر حتى ولو اشتهر بين الناس ترادف المعنيين ، فمن خلال القرآن يمكن أن تخرج بمعجم الفروق الدلالية للألفاظ المترادفة أو المتقاربة المعنى . ومنها قوانين نحوية فمزال القرآن يتحدى باستعماله أساطين اللغة ، وقد خرج على النظام النحوي في أشياء عديدة ، وكأنه يطالب الناس في البحث عن هذا الخروج ، وكل بحث في الخروج النحوي يكتشف من وراءه معنى جديد ، وكذلك قوانين صرفية ، مثل استعمال لفظ ( اسطاعوا ) ، ( استطاعوا ) فالقرآن يستعمل تاء المعاناة إن كان المعنى يعبر عن مشقة ، ويسقطها إن خلا الأمر من مشقة .

ولا ينفصم القرآن عن الكتاب ، فالقرآن الكريم هو أول كتاب عرفه العرب ، وكذلك كان للإسلام أثره في انتشار الكتابة بين العرب الأميين ، عندما حرص على مفادة الأسرى بالتعليم ، فمن كان يجيد القراءة والكتابة من الأسرى يمكنه أن يفتدي نفسه بتعليم عشرة من المسلمين ، وبذلك أعلى الإسلام من قيمة التعليم ، فقد ساوى قيام الأسير بدور المعلم مبالغ مادية عالية . فحُشت الكتابة في المدينة المنورة ، إلى درجة أن وصل عدد كتاب النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى أكثر من أربعين كاتباً .

أما كيف وصلت الكتابة إلى مكة ، فقد تعلموا الكتابة من أهل الحيرة ، وهؤلاء تعلموها من الأنبار<sup>(١)</sup> . وقيل أول من وضع الكتابة العربية كاتب الوحي لسيدنا هود ، وتعلمها منه ثلاثة من عرب طيء هم : مرامر بن مرة ، وأسلم بن سدره ، وعامر بن جدرة . وعن هؤلاء أخذها أهل الأنبار ، ثم تعلمها عنهم أهل الحيرة<sup>(٢)</sup> .

وقد تعلمها بشر بن عبد الملك أخو أكيدر بن عبد الملك صاحب دومة الجندل ، وقد تعرف حرب بن أمية على بشر بن عبد الملك في تجارته في العراق ، وصارت بينهما صداقة ، حتى حضر بشر بن عبد الملك معه إلى مكة ، وتزوج بالصهباء بنت حرب ، فتعلم حرب الكتابة منه ، وكذلك تعلم جماعة من أهل مكة ، فكثرت

(١) جاء في المقنع لأبي عمرو الداني أن الشعبي سأل المهاجرين ، فقالوا ذلك ، انظر المقنع : ص ١٠ .

(٢) جاء في المقنع لأبي عمرو الداني أن الشعبي سأل المهاجرين ، فقالوا ذلك ، انظر المقنع : ص ١٠ .

يكتب بها من قريش (١) .

فكان القرآن ينزل على النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فتعنيه صدور الناس ، ويكتب على أدوات عديدة ، وقد مات النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ والقرآن كله مكتوب ، لكن في أدوات متفرقة ، فلما حدثت موقعة اليمامة ، والتي أسهم في تحويلها من هزيمة إلى نصر ثبات حفظة القرآن ، فدفعوا أرواحهم ثمناً للنصر ، وهنا استجاب أبو بكر الصديق لمشورة عمر بن الخطاب بجمع القرآن الكريم بعد أن كان رافضاً ذلك لأنه متبع للرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، والرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لم يفعلها (٢) . وكلف أبو بكر الصديق زيد بن ثابت كاتب النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بجمع القرآن الكريم ، فاتبع زيد منهجاً علمياً في أن يأتي بالأدوات ثم يطلب شاهدين من حفظة القرآن الكريم ، فإذا طابق كلام الشاهدين ما كتب في الرقاع عنده ، أثبت الآية في المصحف . وقد وجد الآية الثالثة والعشرين من سورة الأحزاب (٣) ليس لها سوى شاهد واحد من الأنصار ، هو خزيمه بن ثابت الذي كان الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قد أجاز شهادته بشهادتين (٤) . لذلك

(١) انظر سمير الطالبين في رسم وضبط الكتاب المبين ، ص ٥ .

(٢) كان أبو بكر الصديق شديد الاتباع لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولهذا أصبر على إنفاذ جيش أسامة إلى الشام كما أمر النبي قبيل وفاته ، على الرغم من رأى عمر ومن حوله بألا يفعل ، لأن الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لو كان حياً ما أنفذ الجيش بعد تغيير الأوضاع ، فقد كان الرسول قد جهزه لتأديب الروم ، وكل ما حول المدينة مسلمون ، فإن ارتدوا عن الإسلام ماكان الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ليرسل الجيش ويترك المدينة عارية في مواجهة الأعداء المحققين بالمدينة ، لكن أبا بكر أصبر على إنفاذ الجيش معتمداً على قول الله عَزَّ وَجَلَّ (وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ) لهذا أنفذ الجيش وأخذ استعداداه ، فوضع قوات استطلاع من أول المدينة إلى المسجد بحيث يقف على قدوم العدو في اللحظة التي يقدم فيها ، وجمع كل قادر على حمل السلاح في المسجد وحوله ، وعندما وصله نبأ وصول قوات غطفان بادرها هو بالهجوم عليها ليلاً وهي معسكرة قرب المدينة استعداداً للهجوم على المدينة في الصباح ، وانتصر أبو بكر ، لذلك عندما قيل له اجمع القرآن لم يستسغ ذلك لأن الرسول لم يفعلها ، فلما قتل من قتل من حفظة القرآن شرح الله قلبه لمشورة عمر عليه .

(٣) سورة الأحزاب ﴿مَنْ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَّنْ قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَّنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَلُوا تَبْدِيلًا﴾ (٢٣)

(٤) جاء في سنن أبي داود : أن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ابتاع فرسا من أعرابي فاستتبعه النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ليقضيه ثمن فرسه فأسرع رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ المشي وأبطأ الأعرابي فطفق رجال يعترضون الأعرابي فيسأومونه بالفرس ولا يشعرون أن النبي صلى الله عليه وسلم ابتاعه فنأدي الأعرابي رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقال إن كنت مبتاعا هذا الفرس والإبته فقام النبي صلى الله عليه وسلم حين سمع نداء الأعرابي فقال أو ليس قد ابتعتك منك فقال الأعرابي لا والله ما بعته فقال النبي صلى الله عليه وسلم بلى قد ابتعتك منك فطفق الأعرابي يقول هلم شهيدا فقال خزيمه بن ثابت أنا أشهد أنك قد بايعته فأقبل النبي

أجازها زيد وألحقها في سورتها ، وظلت هذه الصحف عند أبي بكر حتى مات ، ثم كانت عند عمر حتى مات ، ثم كانت عند حفصة<sup>(١)</sup> .

ولم تسم هذه المحاولة مصحفاً ، بل سميت صحفاً ، قال ابن حجر : والفرق بين الصحف والمصحف : أن الأوراق المجردة التي جمع فيها القرآن في عهد أبي بكر كانت سوراً مفترقة ، كل سورة مرتبة بآياتها على حدة ، لكن لم ترتب بعضها إثر بعض ، فلما نسخت ورتبت بعضها إثر بعض صارت مصحفاً .

وذكر أنس بن مالك أن حذيفة بن اليمان هو الذي أشار على عثمان بن عفان أن ينسخ القرآن الكريم في نسخ ويرسلها إلى الأمصار ، بعد أن رأى حذيفة الناس تختلف في القرآن فخاف أن يختلفوا في القرآن اختلاف من قبلهم ، فاستجاب عثمان وأرسل إلى حفصة رضی الله عنها يطلب منها الصحف التي عندها والتي كتبها زيد بن ثابت لأبي بكر .

وأرسل عثمان ستة نفر هم : زيد بن ثابت ، وعبد الله بن عمرو بن العاص وعبد الله بن الزبير ، وابن عباس ، وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام . وقال انسخوا هذه الصحف في مصحف واحد<sup>(٢)</sup> . ولم يختلفوا سوى في لفظ واحد هو ( أَلْتَابُوتُ ) فقد قال زيد ( التابوة ) مثل التوراة ، وقال القرشيون ( التابوت ) بالثناء المبسوطة ، فرجعوا إلى عثمان ، فقال كتبوها بلغة قريش فإنما نزل بلغة قريش فكتبوها ( أَلْتَابُوتُ ) بالثناء المبسوطة .

ولما أتموا الكتابة سمو الصحف مصحفاً أي جامع الصحف ، ورد عثمان الصحف إلى السيدة حفصة . وبعث عثمان إلى كل أفق بمصحف من المصاحف التي نسخوها ، ثم أمر بما سوى ذلك من القراءة في كل صحيفة أو مصحف أن

صلى الله عليه وسلم على خزيمه فقال بم تشهد فقال بتصديقك يا رسول الله فجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم شهادة خزيمه بشهادة رجلين .

قال الشيخ الألباني : صحيح سند الحديث : حدثنا محمد بن يحيى بن فارس أن الحكم بن نافع حدثهم أخبرنا شعيب عن الزهري عن عمارة بن خزيمه أن عمه حدثه وهو من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم

(١) أبو عمر والداني ، المقنع في رسم مصاحف الأمصار : ص ٤ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٥ .

يحرق<sup>(١)</sup>. وهذا الفعل أعجب الناس ، ولم يعبه منهم أحد ، وقال على بن أبي طالب : لو وليتُ لفعلتُ في المصاحف الذي فعل عثمان<sup>(٢)</sup> . واختلف العلماء في عدد المصاحف التي تم نسخها ، وأقوى الآراء أنها ستة مصاحف لأن عدد الذين كانوا يعملون في النسخ ستة رجال ، وقد بعث إلى كل ناحية واحداً ، فوجه مصحفاً إلى الكوفة ، وإلى البصرة ، وإلى الشام ، وإلى مكة ، وأبقى بالمدينة مصحفاً ، واحتبس لنفسه مصحفاً<sup>(٣)</sup> .

ولا يجوز مخالفة رسم المصحف ، وقد أيد ذلك إجماع الأمة ، ومنهم مالك بن أنس إذ سئل مالك بن أنس : هل يكتب المصحف على ما أحدثه الناس من الهجاء ، فقال : لا ، إلا على الكتابة الأولى<sup>(٤)</sup> ، وقال أبو عمرو الداني (معلقاً على رأى مالك السابق) : ولا مخالف له في ذلك من علماء الأمة<sup>(٥)</sup> ، وقال أحمد بن حنبل : تحرم مخالفة خط مصحف عثمان في ياء أو واو أو ألف أو غير ذلك<sup>(٦)</sup> أما البيهقي فيرى أن من كتب مصحفاً فينبغي أن يحافظ على حروف الهجاء التي كتبوا بها تلك المصاحف ، ولا يخالفهم فيها ، ولا يغير مما كتبه شيئاً ، فإنهم أكثر علماء ، وأصدق قلباً ولساناً ، وأعظم أمانة منا ، فلا ينبغي أن نظن بأنفسنا استدراكاً عليهم<sup>(٧)</sup> . وقال الزجاج : المصحف لا يخالف ألبتة<sup>(٨)</sup> ، وقال الطبري : ليس لأحد خلاف رسوم مصاحف المسلمين<sup>(٩)</sup> ، وقال الزمخشري : خط المصحف سنة لا تغير<sup>(١٠)</sup> .

مما سبق نرى أن الرسم القرآني لا يجب مخالفته ، وقد تفرد العز بن عبد

(١) المرجع السابق ، ص ٧ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٩ .

(٣) سمير الطالبين ، ص ١٢ .

(٤) المرجع السابق ، ص ١٠ .

(٥) المرجع نفسه ، ص ١١ .

(٦) الزركشي ، البرهان في علوم القرآن - ج ١ ، ص ٢٦٤ .

(٧) البيهقي ، شعب الإيمان ، نقلاً عن : الزركشي ، البرهان في علوم القرآن - ج ١ ، ص ٢٦٤ .

(٨) الزجاج ، معاني القرآن ، الجزء الثاني ، ص ٩٩ .

(٩) الطبري ، جامع البيان ، الجزء الأول ، ص ١٦٧ .

(١٠) الزمخشري ، الكشاف ، الجزء الثالث ، ص ٢٥٨ .

السلام بإجازة مخالفة الرسم القرآني فقال : لا تجوز كتابة المصحف الآن على الرسوم الأولى باصطلاح الأئمة ؛ لتلا يُوقع في تغيير من الجهال<sup>(١)</sup> . وهو اجتهاد من العز قاده إليه مذهبه في الشريعة بأن الشريعة كلها مصالح ، إما تدرأ مفسد أو تجلب مصالح ، فهو يرى في مذهبه مصلحة وتيسراً على الأمة<sup>(٢)</sup> . ولعل الإشكال يزول لو علمنا أن مالك بن أنس الذي يتشدد في كتابة المصحف على الكتابة الأولى ، يرى أن لا بأس لو كان في المصاحف الصغار التي يتعلم فيها الغلمان<sup>(٣)</sup> .

وقد التزم العلماء بالرسم العثماني ، فعاصم الجحدري ، وهو من القراء الكبار ، وقد شارك في مشروع المصاحف الثاني في مدينة واسط بمبادرة من الحجاج بن يوسف الثقفي سنة ٨٤ - ٨٥ هـ ، كان يكتب (وَالصَّبْرِينَ ) ويقرأها (والصابرون ) وبغض النظر عن السبب الذي دعاه إلى نطقها بالرفع ، إلا أن ما يعيننا هنا هو أنه لما كتب لم يخالف رسم المصحف . مما يعني أن الرسم العثماني أصبح بنظر كبار العلماء مثل الجحدري صورة معتمدة لا يجوز المساس بها ، ومن ثم غير قابل للتغيير على الإطلاق<sup>(٤)</sup> .

وقد ضرب أحد العلماء (ابن شنبوذ) في مجلس عام لأنه كان يرى مخالفة رسم المصحف .

أما تنقيط المصحف ، فقد كره عدد من السلف تنقيط القرآن ، منهم ابن عمر ، وعبد الله بن مسعود ، وأنس بن مالك ، وقتادة ، وإبراهيم النخعي ، وكذلك الحسن البصري وابن سيرين : قال عبد الله بن مسعود : جردوا القرآن ولا تخلطوه بشيء<sup>(٥)</sup> . وحجتهم في ذلك كما يجملها ابن سيرين : إني أخاف أن يزيدوا في الحروف أو ينقصوا<sup>(٦)</sup> . وقد رأى الفريق الآخر أن العجم نور الكتاب ،

(١) الزركشي ، البرهان في علوم القرآن - ج ١ ، ص ٢٦٤ .

(٢) غانم قدوري الحمد ، رسم المصحف ، دراسة لغوية تاريخية ، ص ١٦٨ .

(٣) أبو عمرو الداني ، المحكم في نقط المصحف ، ص ٢٥

(٤) عمر يوسف عبد الغني حمدان ، أضواء جديدة على الرسم العثماني ، مظاهر وأنماط ، مؤسسة الريان ، ص ١٠ .

(٥) السيوطي ، الاتقان في علوم القرآن ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، مكتبة دار التراث ، الجزء الرابع ، ص ١٦٠ ،

(٦) انظر المحكم في نقط المصحف لأبي عمرو الداني ، دار الصحابة ، ص ٢٥ ،

وقال الحسن لا بأس بنقطها بالأحمر <sup>(١)</sup> .

كان القرآن مجرداً كما قال يحيى بن أبي كثير ، فأول ما أحدثوا فيه النقط على الياء والتاء ، وقالوا : لا بأس به ، هو نور له ، ثم أحدثوا فيها نقطاً عند منتهى الآي ، ثم أحدثوا الفواتح والخواتم <sup>(٢)</sup> . وقد قال قتادة : بدءوا فنقطوا ثم خمسوا ثم عشروا ، قال أبو عمرو الداني : هذا يدل على أن الصحابة وأكابر التابعين هم المبتدئون بالنقط ورسم الخموس والعشور لأن حكاية قتادة لا تكون إلا عنهم ، إذ هو من التابعين ، وقوله ( بدءوا ) دليل على أن ذلك كان عن اتفاق من جماعتهم <sup>(٣)</sup> .

ويرى الداني أن الأوائل قد أخلوا المصاحف من النقط لأنهم أرادوا السعة في اللغات وفي القراءات التي أذن الله تعالى لعباده في الأخذ بها والقراءة بما شاءت منها <sup>(٤)</sup> . وكان بداية ذلك أن معاوية انتقد زياداً بن أبيه عندما وجد ابنه يلحن ، فقال له أمثل عبيد الله يضيّع ؟ فأراد زياد من أبي الأسود الدؤلي أن يضع شيئاً يصلح به الناس كلامهم ، ويعربون به كتاب الله تعالى ، فأبى ذلك أبو الأسود <sup>(٥)</sup> . فأقعد زياد رجلاً في طريق أبي الأسود وجعله يقرأ آية بطريقة خاطئة هي قوله تعالى ( أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ ) ، فقرأ ورسوله بكسر اللام ، فاستعظم ذلك أبو الأسود وقال : عز وجه الله أن يبرأ من رسوله ، ووافق أن يبدأ بإعراب القرآن ، وأخذ رجلاً من عبد القيس ، وجعله يستعمل صبغاً يخالف لون المداد ، وجعله يضع نقطة فوق الحرف عند فتح الشفة ، ونقطة إلى جانب الحرف عند الضم ، وتحتة عند الكسر ، وهذه الرواية تعنى أن هذا الأمر تم مبكراً لأن زياداً مات سنة ٥٣ هـ .

أما أول من نَقَطَ المصاحف : فهو يحيى بن يعمر ، أما الشدة فجعل الخليل على الحرف المشدد ثلاث شينات وأخذ من أول كلمة (شديد) ، والضبط الحالى من

(١) انظر المحكم في نقط المصحف لأبي عمرو الداني ، دار الصحابة ، ص ٢٦ ،

(٢) انظر المحكم في نقط المصحف لأبي عمرو الداني ، دار الصحابة ، ص ١٠ ،

(٣) انظر المحكم في نقط المصحف لأبي عمرو الداني ، دار الصحابة ، ص ١٢ ،

(٤) انظر المحكم في نقط المصحف لأبي عمرو الداني ، دار الصحابة ، ص ١٢ ،

(٥) انظر المحكم في نقط المصحف لأبي عمرو الداني ، دار الصحابة ، ص ١٣ ،

عمل الخليل : فالضمة واو صغيرة في أعلى الحرف لئلا تلتبس بالواو المكتوبة ، والكسرة ياء تحت الحرف ، والفتحة ألف مبطوحة فوق الحرف .

إنك إن توصلت إلى أسرار اختلافات الرسم القرآني مع الكتابة العادية يجب أن نذهب حتماً إلى أن الرسم توقيفي .

وقد ظَلَلْتُ أَمِيلُ إلى أن القرآن الكريم نطقه توقيفي ، لكن خطه لا ، وإن الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان يملأ النص فيكتبه كل كاتب كما يرى ، ولأن القرآن منطوق ، ويتم تعلمه بالتواتر ، لا بالقراءة من المصحف ، فإن القرآن ظل محفوظاً برغم اختلاف الكتابة . وكنت أرى أن سبب تعدد صور الكلمة الواحدة يرجع لتعدد الكاتبين ، فلما تعرضت لها بالدراسة ووجدت أن الاختلاف قياسي بدأت أميل إلى نظرية توقيف الخط القرآني ، وجاءت الدراسة لتؤكد تلك النظرية وتنقلها من علم اليقين إلى عين اليقين .

وقد قال بتوقيف الرسم عدد من العلماء ، لكن الأكيد أن ذلك الكلام ظل فرضاً لا يؤكده دليل ، ومن ثم لا يُجَبَّرُ أحد على الأخذ به ، لكن مع الدليل وإثبات أن كل زيادة أو حذف أو مخالفة في الرسم مقصودة ، وأن تكرار الاختلاف يرجع لسبب واحد لا يتغير ، هنا لا يستطيع أحد أن يعزف عن هذه النظرية .

فالنظرية بدون إثباتات ، هو فرض يأخذ به البعض ولا يأخذ به البعض ، لكنها بإثباتها تصبح يقيناً لا يرفضه إلا معاند .

فإنك عندما تجد القرآن يكتب الألف الممدودة على واو ، ثم تجد أن ثمة رابطاً واحداً لجميع الكلمات التي تكتب على واو تكتشف أن الهمزة الممدودة المكتوبة على واو لم تخالف الهمزة الممدودة المكتوبة على السطر إلا لهدف ، ولم يكن كتابتها عبثاً ، فلا يمكن أن تكون كيفما اتفق ، ثم يربطها جميعاً رابطاً واحد ينتظم كل الكلمات التي كتبت فيها الهمزة الممدودة على واو .

وكذلك عندما ترى أن كل الكلمات التي حذف فيها الياء من الاسماء ترجع إلى

هدف محدد لا يشذ في أى كلمة ، وأن الكلمة لو تكررت مرتين ، واحدة بذكر الياء والأخرى بحذف الياء ، فذلك لأن السياقين مختلفان .

والإعجاز الخطي هو تناول الكلمات التي خالفت في كتابتها منطوقية الكتابة العربية ، ودراستها دراسة تكشف المغزى من ورائها ، على سبيل المثال : إن الفعل يكون عند جزمه يصبح **يَكُنْ** ، وقد استعملها القرآن أكثر من مرة بهذا الشكل ( **يَكُنْ** ) تحديدا في اثنتين وثلاثين مرة ، وفي مواقف أخرى يستخدم الفعل نفسه في حالة الجزم ، لكنه يستغنى عن حرف النون فيصبح ( **يَكُ** ) وقد جاء بهذا الشكل ثمانى مرات ، وبذلك نجد أن إحصائية الفعل يكون في حالة الجزم أربعين مرة ، جاءت على شكلين ، أحدهما يتفق مع اصول الكتابة العربية والآخر يختلف عنها ، ولا بد أن يكون لهذا الاختلاف مغزى ، فإن لم يكن له مغزى ، فالقرآن له إعجازه في كل مجال دون الخط ، أما إن كان له مغزى يصبح للخط إعجازه ، ونقدر وقتها أن نقول أن طريقة الكتابة ليست اجتهادات حرة للكاتبين ، بل هى أمور يريدونها الله هكذا . وهنا لا يمكن أن يصح ما قيل أن ثمة مخالقات نحوية مرجعها أخطاء الكتاب كما روى عن السيدة عائشة ، فإن كان الخط مقصوداً لذاته ، فلا بد أن الانكسار النحوي كذلك مقصود لذاته .

والأمثلة عديدة فهو يستخدم فعل الأمر ( اخشوني ) : مرة بإثبات ياء المتكلم : **وَإِخْشَوْنِي** ، وأخرى بإهمالها **وَإِخْشَوْنِ** . فهل هناك مبرر لحذف ياء المتكلم في كلمة وإثباتها في الكلمة نفسها في موضع آخر ؟ إن اكتشاف المبرر يقرر إن القرآن له ناحية جديدة في مجال الإعجاز .

وقد أكدت الدراسة أن كل خروج عن مألوف الكتابة العربية كان له سببه الوجيه ، وهذا كان الهدف من تلك الدراسة هو الوصول إلى أن الخط لم يكن جهداً بشرياً ، لكنه كان إعجازاً ربانياً .

أما المحاولات السابقة ولنضرب مثلاً بالتاء المفتوحة ، لأن الألف والهمزة

الأخيرة يكاد لم يتطرق لهما أحد ، سنجد أنه قد غلب على كل المهتمين بهذا الأمر سرد الكلمات المكتوبة بالتاء المفتوحة ، دون تعليلها ، أما من اتجه إلى التعليل فقد غلب عليه الاتجاه الجزئي ، فهو ينظر إلى الأمور من منظور محدد غير شامل ، فيخرج بتعليل يصلح لتلك الآية ، لكنه لا يصلح لسائر الآيات ، وفي رأي أن الرأي الصواب هو الذي يصلح لجميع الحالات ، وليست لحالة معينة . فالاستقصاء شرط صحة الرأي في القرآن الكريم .

ومن المحاولات محاولة أبي بكر الصولي في أدب الكاتب فيرى أن السبب في رسم التاء مبسوط في المصحف نحو (رَحِمَتِ رَبِّكَ ) ، (أَبْنَتَ عِمْرَانَ ) ، (نِعْمَتَ اللَّهِ) : لكثرة اصطحابهما ، ليس ينفصلان في القراءة فصار كالحرف الواحد الذي لا ينفصل منه <sup>(١)</sup> .

وما قدمه من تعليل لا يصلح لكل الكلمات ، لأن الملازمة ليس تعليلاً دقيقاً ، لأن كثير من الكلمات مثل : نعمة الله : كانت تأتي بالشكلين : (نِعْمَتَ اللَّهِ) ، (نِعْمَةٌ لِلَّهِ) فكيف يسوغ لنا أن نقول أن التلازم في الأولى ، ولا يوجد التلازم في الثانية وهي نفسها . والأمر نفسه (رَحِمَتِ رَبِّكَ) ، (رَحْمَةٌ لِلَّهِ) .

أما أبو العباس المراكشي فيرى أن الأسماء المنتهية بالتاء إذا كانت بمعنى الاسم والصفة فإنها تكتب بتاء مربوطة مثل (زَهْرَةٌ) ، (صِبْغَةٌ) : أما إذا كانت بمعنى الفعل فإنها تكتب مفتوحة <sup>(٢)</sup> .

هذا الرأي من الآراء الجيدة التي لم تلق عناية كافية من صاحبها ، لأن التاء تكون بمعنى الفعل وتفتح وتغلق ، لكنها لو كانت بمعنى الفعل في الوقت الحالي كأنها تحدث الآن فهي تفتح .

ويرى الشوكاني أن إغلاق التاء هو الرسم القياسي ، وفتحها هو الرسم غير

(١) أبو بكر الصولي ، أدب الكاتب ، ص ٢٥٠ .

(٢) أبو بكر الصولي ، أدب الكاتب ، ص ٢٥٠ .

القياسي ، وأنها تأتي بالرسم القياسي مع الدلالة الحقيقية ، وتأتي بالرسم غير القياسي مع الدلالة غير الحقيقية . فكلما قرءت في سورة القصص بفتح التاء ( غير القياسي ) : وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرْتُ عَيْنِي لِي وَلَكَ <sup>(١)</sup> لأن المعنى مجازي إذ إن الابن ( موسى ) ليس من صلبهم . وجاء بإغلاق التاء ( القياسي ) في سورة الفرقان : ( رَبَّنَاهُ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ <sup>(٢)</sup> ) لأن الابن من صلبهم . ويرد على ذلك أن كلمة قرءت بفتح التاء ولا تتحدث عن الأبناء من الصلب ، ( فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ <sup>(٣)</sup> ) .

ويقرر أيضاً أن كلمة بينة جاءت في المواضع التي رسمت على الأصل جاءت على الحقيقة والواقع بمعنى أنها تدل على حقيقة ربانية حدثت أو هي معجزة وبرهان ، وفي سورة فاطر لم تدل على هذا المعنى ، فقد جاءت بمعنى بيان : والمعنى : هل أعطينا كفار مكة كتاباً فهم على بيان منه بأن مع الله شريكاً <sup>(٤)</sup> ، ويرد على ذلك في المثال نفسه كلمة : ( قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ ) .

ومن الكتب الجيدة التي حاولت بصدق أن تصل إلى مغزى الرسم القرآني : كتاب إعجاز رسم القرآن وإعجاز التلاوة لمحمد شملول <sup>(٥)</sup> :

التاء المفتوحة	التاء المربوطة		
رحمة خاصة ببعض الخلق وجميعها في السور التي تبدأ بالحروف المقطعة	توحى بالرحمة العامة	رحمة	
تنسب إلى الزوج وتعنى امرأة لها أهميتها .	توحى بالمحدودية والأهمية العادية	امرأة	

(١) القصص (٩) ونصها : ﴿ وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرْتُ عَيْنِي لِي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰ أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَسْعُرُونَ ﴿١﴾ ﴾

(٢) الفرقان (٧٤) ونصها : ﴿ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَاهُ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴿٧٤﴾ ﴾

(٣) السجدة (١٧) ونصها : ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾ ﴾

(٤) الشوكاني ، فتح القدير ، ج ٤ ، ص : ٣٥٦ .

(٥) محمد شملول ، إعجاز رسم القرآن وإعجاز التلاوة ، دار السلام ، ص ص (١٦٩-١٨٣) .

لوقوف خاص له دلالاته وتأثيره	تعنى اللعنة بصفة العمومية	لعنة
خصوصية هذه الكلمة وأهميتها ودلالاتها غير العادية		كلمة
لتبين الإثم الكبير الذى يقع فيه كل من عصى الرسول .		معصية
يضيف معنى جديداً وخصوصاً وينبه القارئ الكريم إلى وجود مثل هذا المعنى ليتدبره ويستخلصه		سنة
لتعطى معنى أكبر حجماً وقدرًا .		قرة
تدل أن للمقربين جنة مخصوصة مفتوحة واسعة .		جنة

مما سبق نجد أن البحث لم يقدم تعليلاً ثابتاً لكل الكلمات ، فقد تراوح التعليل بين الخصوصية ، والأهمية ، والكبر . فلأنها غير عادية ، ولأنها أكبر حجماً .

يرى أن كلمة (رحمت) تعنى رحمة خاصة ببعض الخلق ، كما تفيد بالرحمة الكلية ، وأن جميع السور التى وردت فيها (رحمت) بالتاء المفتوحة هى من السور التى تبدأ بالحروف المقطعة .

لا علاقة بالحروف المقطعة بفتح التاء ، لأن رحمة بالحاء المغلقة جاء في سور تبدأ بالحروف المقطعة ثلاثة أضعاف رحمت في السور التى تبدأ بالحروف المقطعة .

أما قوله بأنها رحمة خاصة ببعض الخلق وهم الذين هاجروا وجاهدوا في سبيل الله ، المحسنون ، أهل البيت ، زكريا ، إحياء الأرض بعد موتها .

ويعد الزركشي أقرب من وصل إلى المعنى الصحيح لسر كتابة التاء ، يقول (إن هذه الأسماء لما لازمت الفعل ، صار لها اعتباران : أحدهما من حيث هي أسماء

وصفات ، وهذا تقبض منه التاء ، والثاني من حيث أن يكون مقتضاها فعلاً وأثراً ظاهراً في الوجود ، فهذا تمد فيه كما تمد في (قالت) ، و(حقت) وجهة الفعل والأمر ملكية ظاهرة ، وجهة الاسم والصفة ملكوتية باطنة <sup>(١)</sup> .

وقد أصاب الزركشي في عدد من الكلمات لأنه فطن إلى جوهر التغاير ، فقال : في (بقيت الله) : مدت تاؤه لأنه بمعنى ما يبقى في أموالهم من الربح المحسوس ، لأن الخطاب إنما هو فيها من جهة الملك .

وليته انتبه للفظ المحسوس التي استعملها في هذا التعبير وطبقها في سائر الكلمات . وقال في فطرت الله : فهي فصل خطاب في الوجود كما جاء ( كل مولود يولد على الفطرة ) . وهو هنا : ابتعد عن فكرة التجسد في ذات اللحظة ،

وهو يرى أن التاء المربوطة توحى بالمحدودية والأهمية العادية ، أما المفتوحة : لتجعل المعنى مفتوحاً وواضحاً ، وذا أهمية ويجب الالتفات إليه وأخذ العبرة منه . وما يعيب هذا الاتجاه هو الاجتهاد في تعليل كل كلمة بشكل مختلف عن أخواتها ، فيقول عن كلمة نعمة المربوطة لأنها محدودة ومربوطة ، بينما تأتي بالتاء المفتوحة لتدل على النعم الخاصة التي وهبها الله للمؤمنين من عبادة ، وتدل على النعم المفتوحة التي لا يمكن إحصاء عددها .

ولاشك أنها جهود طيبة لو أنها اعتمدت مبدأ وحدة التعليل لكل الاستعمالات .

(١) الزركشي ، البرهان في علوم القرآن ، الجزء الأول ، ص ٢٨٢ .

## ٥. الدراسة الراهنة :

هي دراسة في الأحرف الوظيفية ، وقد سميتها بالوظيفية لأن الحرف في كتابته أو طريقة رسمه لا علاقة له بالموقف الإعرابي ، أي أن زيادة الحرف أو إنقاصه أو تغيير رسمه يرجع إلى وظيفة دلالية يحققها هي الدافع لزيادته أو نقصه أو طريقة رسمه .

وهي تدرس خمسة أحرف في القرآن الكريم هي :

١. اللام الزائدة : وهي لام زائدة نحوية ، فهي تأتي مع الفعل المتعدي بذاته الذي لا يحتاجها ، فالفعل يکید متعدد بذاته ، ومع ذلك لا يقول القرآن : فيکیدوك كيداً ، بل يقول فيکیدوا لك كيداً ، والفعل يستطيع متعدد بذاته ، ومع ذلك نجد هذين الاستعمالين : { لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ }<sup>(١)</sup> ، { وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا }<sup>(٢)</sup> فوضع اللام في الثانية دون الأولى .

والدراسة تحاول أن تجد سبباً يصلح لتعليل وجود هذه اللام في مواضع في القرآن دون مواضع أخرى .

٢. نون يکن : فالقرآن يكتب الفعل مرة بالنون وأخرى بدونها ( يک ) والدراسة تستقصى كل استعمالات الفعل الخالي من النون ، وتحاول أن تقدم السبب الذي يصلح لتعليل الحذف في الاستعمالات المحذوفة ، وفي الوقت نفسه يكون معكوسه سبباً لتبرير الاستعمالات التي لم تحذف فيها النون .

٣. الياء : في الاسم المنقوص ، أو ياء المتكلم المضافة للاسم ، أو الياء في الفعل

(١) سورة الأعراف : { وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَا أَنْفُسُهُمْ يَنْصُرُونَ } {١٧٧}.

(٢) سورة الأعراف : { وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَا أَنْفُسُهُمْ يَنْصُرُونَ } {١٧٢}.

الناقص أو ياء المتكلم المضافة للفعل ، ثم حذف الياء بدون مبرر نحوي ، بل حذفها في موضع الرفع للفعل ، أو في موضع التعريف بأل للاسم ، وهي مواقع يمتنع فيها الحذف نحويًا ، وبابتعاد السبب النحوي لا يبقى إلا السبب الوظيفي : وانظر رسم الفعلين (فَكِيدُونَ) ، (فَكِيدُونِي) فالفعل واحد ، وهو يخاطب جمعًا ويضع ياء المتكلم المفعولية المسبوقة بنون الوقاية التي تقي الفعل من الكسر ، ومع ذلك فقد حجب الياء في أحدهما ، وأثبت الياء في الثاني ، وتسعى الدراسة إلى تقديم سبب واحد لحجب الياء وقت حجوبها ، وبقائها وقتما تبقى .

٤. الألف : لو نظرت لاسم الله القهار : { الْوَّاحِدُ الْقَهَّارُ } : { الْوَّاحِدِ الْقَهَّارِ } سترى أن كلمة (الْوَّاحِدُ) لم تثبت الألف في جسم الكلمة ، بينما القهار وردت مرة بإثبات الألف وأخرى بحجبها ، وهذا الأمر متكرر بغزارة ، والدراسة تهدف إلى تقديم سبب لكتابة الألف وفي الوقت نفسه لحجبه عن الكتابة .

٥. التاء المفتوحة في الأسماء ، فالمعروف أن الاسم تاؤه مربوطة ، وانظر إلى الآيتين الآتيتين :

- ① { وَإِنْ تَعَدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ } [النحل] ١٨
- ② { وَإِنْ تَعَدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لظَلُومٌ كَفَّارٌ } [إبراهيم] ٣٤

كما ترى لا تغيير سوى في الرسم الكتابي للتاء ، والدراسة تهدف لتقديم سبب للرسمين معًا .

تلك كانت الأحرف الوظيفية التي ستمت الدراسة التطبيقية عليها ، وقد أسميتها الأحرف الوظيفية لانعدام السبب النحوي في التغير ، فليس إلا الوظيفة التي تجعل الحرف ينقص أو يزداد أو يتغير شكله الكتابي .

٦. الهمزة المكتوبة على الواو : فلو نظرت للرسم الكتابي لكلمة جزاء ستجد لها شكلين : على السطر (جَزَاءٌ) ، وعلى الواو (جَزَوُا) وكلتا الكلمتين في موقع رفع ، أي أن الموقع الإعرابي لا علاقة له بكتابة الكلمة بشكلين ، والدراسة تسعى لتقديم سبب ينتظم كل استعمالات هذا الشكل من الكتابة .

والأحرف الستة منها ما يتعلق بالرسم القرآني ( الخطي ) مثل التاء المفتوحة للاسم أو المربوطة الخاصة بالاسم ، ومثل إثبات الألف في جسم الكلمة أو حذفها ، وكذلك كتابة الهمزة على السطر أو على الواو ، ومنها ما يتعلق بزيادة الحرف أو نقصه مثل حذف نون يكن أو بقائها ، ومنها زيادة اللام . ومنها حذف الياء الأصلية أو ياء المتكلم من الفعل والاسم . والدراسة الراهنة تبدأ طريقاً طويلاً خاصاً بالرسم القرآني ، وهي تضع فرضاً علمياً مفاداه أن القرآن الكريم توقيفي من حيث الرسم .

والفرض العلمي يظل فرضاً ، حتى يتم استقصاء كل الأمثلة فلا تنفيه ، ولذلك نرى أن الدراسة لا بد أن تتسلح بالاستقصاء أي استظهار كل الكلمات ووضعها تحت الدراسة ، فإن ثبت أن كل الكلمات التي أخذت شكلاً مختلفاً في الرسم قد انتظمها كلها بلا استثناء سبب واحد ، فهذا يعني أن الفرض أصبح صحيحاً وانتقل من الفرضية إلى اليقين .

أما الأسس التي أتبعها في تلك الدراسة :

## المبدأ الأول: الاستقصاء :

الاستقصاء مع كل استعمالات الكتاب ، فلا قانون يُستنبط أبداً من بعض الاستعمالات ، فماذا لو كان إحدى هذه الاستعمالات تتناقض مع القانون ، بالاستقصاء تطمئن إلى قانونك ، وتقف على أرض صلبة ، وتعرف ما يمكن أن يعترض عليك به ، وكيف تردُّ عليه ، وأرى أن كثيراً من الآراء التي استمرت لوقت طويل ثم تهافت خاوية على عروشها سببها أن صاحبها خانه الاستقصاء فخانتته الحقيقية .

وكم سمعت وأنا صغير أن الجلوس يختلف عن القعود ، في أن القعود من الوضع واقفاً (رأسياً) أما الجلوس فمن الوضع نائماً . ثم وجدت الله عزَّ وجلَّ يأمرنا أن نفسح في المجالس ، وهنا عرفت أن القانون لا يمكن أن يكون صحيحاً لأننا لن نتواجد في المجالس من وضع النوم .

وكذلك ما قيل إن الريح تختلف عن الرياح في أن الريح تكون في الشر لأنها من جهة واحدة فتدمم ما يقابلها ، أما الرياح الجمع فمتقابلة يكسر بعضها حدة بعض ، وهنا يصطدم القانون مع قوله تعالى: {وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَبَّيَّةٍ} <sup>(١)</sup> فهذا الاستعمال لم يطرق سمع من وضع القانون ، وإلا ما وضعه .

وقد أفادني منهج الاستقصاء جداً في تصويب ما أصل إليه ، وتجنبي ما يكسر القواعد ، أذكر مثلاً لما فرقت بين القرية والمدينة ، وقلت إن كل التجمعات قرى لأن أصل الكلمة: التجمع ، فإذا أصبح في القرية سلطان يدين له الناس بالولاء والخضوع والطاعة أصبحت مدينة ، فلا مدينة إلا عاصمة السلطان ، وقد وجدت القانون متسقاً مع اللغة والاستعمال ، فاعتمده وقلته في ندوة ما ، فإذ بأحد الحاضرين

(١) سورة يونس . الآية (٢٢)

من حفظة القرآن لا يشغله في الندوة إلا أن يستحضر كل استعمالات الكلمة ليتأكد مما أقول ، ثم وجدته يبتسم وكأنه وجد كنزاً ، وقال لي أمام الحاضرين: فما قولك بكلام ملكة سبأ ٩٩ : { قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً } (١) ألم تكن ملكة يدين لها الناس بالخضوع والولاء والطاعة ، فلماذا لم تستعمل كلمة ( مدينة ) ٩٩؟ لكنني كنت مسلحاً بسلاح الماضي: الاستقصاء ، ولم يفاجئني بهذا الاعتراض ، فقد وقفت عنده قبله ، وكنت على وشك الانصراف عن قانوني ، لولا أنني وجدته لا يعارضه كما اتضح في ردي على المعارض:

إذ قلت له: فهي هي تتكلم عن مكانها هذا وقت سلطانها أم بعد أن تفقده ٩٩ إن هذا المثل تحديداً يحمل بصمة زمنية لا يمكنك أن تتعامل معه بدونها ، فالملكة لا تتحدث عن هذا المكان وقت سلطانها ولكن بعد زوال سلطانها ، فهي إن كانت الآن مدينة فهي في الوقت الذي سيدخل فيه الملوك إليها ويسلبونها منها لن تكون إلا قرية فقدت سلطانها بدخول الغازي واحتلالها ، وستكون الملكة إما مقتولة أو أسيرة ذليلة .

قلت له: فهل وقتها ستظل المدينة مدينة تخضع لهذه السلطانة الأسير أو القتل بالطاعة والولاء ؟ شكرني الرجل ، وشكرت ربي على نعمة الاستقصاء ، ولولاها لتهدم كل ما قلته خلال الندوة التي استمرت ثلاث ساعات حتى لو كان كله صحيحاً ما عدا هذه .

نفعتني الاستقصاء لأنني أخذت وقتاً لأصل إلى اتساق هذه الكلمة الشاردة عن قطيعها مع القطيع ، فالتزامن كان مهماً في فهم المعنى ، فالملكة تعيش في مدينة ، وهي مدينة لأنها ذات سلطان عليها يخضع لها الناس بالولاء ، لكنها لا تتكلم عنها وهي على هذه الحال ، بل تتكلم عنها عندما تصير في المستقبل عكس ذلك ،

(١) سورة النمل . الآية (٣٤)

فهذه المدينة التي هي مدينة لحالتها هذه ستؤول غداً إذا انقلب الحال إلى عكس معناها فتصبح قرية ؛ ولذلك كان السؤال حاسماً هل هي تتكلم عن مدينتها وقت خضوعها لسلطانها أم تتكلم عنها بعد زوال سلطانها عنها ؟

فاليوم: بلقيس ملكة ، ومملكتها مدينة وهي في سلطانها .

الغد: ليست ملكة ، وتحول المكان إلى قرية فقدت سلطانها .

لأن الكلمة لم تطلق على المكان وقت التكلم ، لكنها تتكلم عنه في المستقبل ، وشتان بين وضع المكان في الزمنين: الأول لا حرب وهي صاحبة الكلمة على مدينتها ، والثاني: حرب سقطت فيها المدينة واستبيحت . فلا يمكنك إذن أن تغفل الظرف الزمني .

منهج الاستقصاء هو ما أعطاني الوقت الطويل لأقف على متانة القانون ، وأن هذا المثال لا يهدم القانون ، بل يرسخ وجوده .

ومرة أخرى توصلت من خلال دراستي اللغوية للقرآن الكريم بأن نوحاً عليه السلام لا يمكن أن يكون هو آدم الأصغر أو آدم الثاني ، وأن كل البشرية امتدت من ذريته . وأيضاً كنت مستعداً بما يعترض عليّ به ، ليس إقوله تعالى: { وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ } <sup>(١)</sup> ، لكنني كنت أملك أكثر من خمس أدلة قرآنية على كلامي وحديث صحيح يقطع بما أقول ، ولا يمكن أن يتناقض القرآن مع بعضه البعض ، لذلك قلت إن تأويل نص واحد قابل للتأويل أجدر من تأويل نصوص عدة لا تحتمل التأويل .

ومرة أخرى وجدت النص يرفع في وجهي ، ويقول لي: هذا ردُّ قاطع على أن ذرية نوح فحسب هي الباقية ! ولا يدري أن القرآن يصرح بذرية المحمولين مع نوح ، ويقول لنوح عليه السلام : { أَهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ أُمَمٍ مِّمَّنْ مَعَكَ } <sup>(٢)</sup>

(١) سورة الصافات . الآية (٧٧)

(٢) سورة هود . الآية (٤٨)

فقله أمم ممن معك تقرر أن من معه سيصيرون أمماً ، فقيل لي: لعل المقصود: الأمم التي حملها من غير البشر ، فقلت ، لكن ( من ) عاقلة . كما أن الآية لها بقية تتحدث عن عذاب بعض الأمم التي معه: { وَأُمَّمٌ سَمِعْتَهُمْ ثُمَّ يَمْسُهُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ } (١) ، فهل الحيوانات تُعذَّب ؟

وانتهى الاعتراض سريعاً إذ طلب توضيح الآية التي اعترض بها ، قلت له: هذه الآية قيلت في سياق تقابلي ، فصيغت بأسلوب قصر تقابلي ، أي هناك مواجهة بين نوح وقومه ، فأخبر عن نوح ببقاء ذريته في مقابل ذرية قومه التي غرقت ، لكن هذا لا يمنع أن يكون هناك ذريات أخرى من غير أعدائه باقية .

كان هذا بفضل منهج الاستقصاء الذي يتيح لك الوقت الكافي لتعرف من أين يأتيك الهجوم وتستعد له ، ولا يحصل أحد على انتصار وهمي عليك وأنت ربما على صواب ، فالاستقصاء يعطيك الوقت الكافي للاستعداد .

(١) سورة هود . الآية (٤٨)

## المبدأ الثاني: القانون الداخلي :

ومن أعمدة منهجي في دراسة القرآن أيضاً هو معرفة القانون الداخلي للقرآن الكريم ، فالأطباء يعالجون أي عضو بمعرفة كيف يعمل ، كذلك رأيت أن القرآن الكريم يعرف جيداً ما يفعل ، فكان من المهم معرفة السر وراء استعماله لهذه الكلمة هنا ، واستعماله لأخرى هناك ، لذلك أنا أرى أن خير أداة لمعرفة الحقيقة أن تقف على سر الخلطة كما يقولون ، وأرى أنه ليس هناك خير من القرآن ليعرفك تقنيات استعمال تعابير العربية ، فالقرآن من يعلمك الاستعمال الصحيح ، وهذا لا يتم إلا باستقراء كل الاستعمالات لتعرف الرابط الذي يجمع بينها أو يفارق .

وقد وجدت أن القرآن الكريم مثلاً في استعمال كلمة المرأة يطلقها على البنت التي لم تتزوج ، وعلى المرأة المتزوجة ، وعلى الأرملة التي مات زوجها ، وهنا لأن المستعمل خبير يعرف ما يفعل ، فهناك رابط ما بين هذه الاستعمالات ، وبالدراسة ستصل حتماً إلى السر: وقد وجدت أن القرآن يطلق كلمة المرأة على أنثى البشر: إذا كانت بعيداً عن الزوجية ، لذلك فهي تطلق على البنت التي لم تتزوج ، لأنها بمفردها ، ليست بذات زوج ، وتطلق على الأرملة والمطلقة لأنهما أصبحتا بلا زوج ، وتطلق أيضاً على المتزوجة إن كانت في زواجها كغير المتزوجة ، فلا تملك أساسيات الانسجام الزوجي ، وسترى القرآن يعلمك أن الزواج السوي هو ما كانت فيه:

١. وحدة العقيدة ، فإن كان أحد الطرفين كافراً فهي امرأة لأن أحدهما في شقاء مع الآخر مثل امرأة لوط وامرأة نوح وامرأة فرعون .
٢. عدم العفة أو الخيانة الزوجية: مثل امرأة العزيز .
٣. وفاة الزوج وهي حبلى مثل: امرأة عمران .
٤. عدم الخصوبة والعجز عن الإنجاب مثل امرأة زكريا ، وامرأة إبراهيم ،

وسوف ترى أن امرأة زكريا لما يستجيب الله لدعائه سيطلق عليها زوج.

٥. النشوز: مثل امرأة أبي لهب .

وهكذا كان هناك رابط موجود دوماً يربط بين كل الاستعمالات ، لكنه بحاجة إلى من يصل إليه ، لكنه موجود ، مثل كل قوانين الطبيعة موجودة لكنها تنتظر من يصل إليها . وهل ما وصل إليه نيوتن وغيره لم يكن موجوداً قبلهم .

وجدت أن كلمة امرأة في كل استعمالات القرآن هي أن تكون مفردة بلا زوج، سواء قبل الزوج أو بعده ، أو أثناء وجودها معه لكن فاقدة لانسجام الحياة معه فكأنها وهي معه ليست معه ، بل وحدها لأنه زواج مبتور أي ليس بزواج .

وهكذا عرفنا أن المرأة هي كل ما ليس زوجاً بمفهوم الله للزواج . وبذلك لو قرأت القرآن ووجدته يقول: امرأة تملكهم عن ملكة سبأ فاعرف أنها بلا زوج .

فالقرآن إذن يقنن استعمالاته ، وما عليك إلا أن تصل إلى الرابط الذي يربط كل هذه الاستعمالات دون أن تشذ واحدة ، واعلم أن القرآن الكريم يحمل في ذاته سر الاستعمال ، كما كانت الأرض تحمل في ذاتها الجاذبية حتى انتبه إليها نيوتن.

وهكذا ستجد كنوزاً من جماليات العربية في القرآن الكريم ، وما عدم وصولنا إليها إلا لقصور فينا أو تقصير .

واعلم أن المستعمل (القرآن) متقن لعمله ، فادرس استعماله لتعرف القانون الداخلي الذي يحكم استعماله ، إن القرآن نفسه هو مفتاح كنزه .

## المبدأ الثالث: الوحدة العضوية:

اعتماد مبدأ الوحدة: بمعنى لا تقول أن سبب فتح تاء نعمة كذا ، لكن سبب سبب فتح تاء امرأة أو شجرة كذا ، بل لا بد أن يكون السبب عامًا للجميع ، وأن تتسجم جميع الكلمات مفتوحة التاء في نظام واحد كما تتسجم حيات العقد في نظامه .

ومبدأ الوحدة هو عاصم لعدم التناقض ، وعدم انهيار القانوةن بعد فترة من الوقت ، لأنه لن تبقى إلا الحقيقة ، وكل ما هو غير حقيقي فهو زاهق حتى لو كان يعظم في الكتاب .

وهذا المبدأ يتبعه: وجوب التقنين: فلا جواز في القرآن الكريم ، كما رأينا في تقنين جواز تذكير وتأنيث فعل جمع التكسير فأبى القرآن إلا التقنين لأن الجواز المطلق يعني الفوضى ، ستجد أن للقرآن قانونه الخاص مع كل جوازات اللغة العربية.

إن اللغة العربية لا يصلح معها ما لا يصلح للقرآن الكريم ، لأن ما ينسحب على اللغة العربية ينسحب على القرآن الكريم ، فما لا يجوز أن تقوله عن الاستعمال القرآني لا تبحه في اللغة العربية .

من ذلك التبعثر ، فلا يمكن أن تعلل تعليلاً لكتابة تاء نعمة ، برسم التاء مفتوحة بأن ذلك لأنه كان هناك ضيق ، ثم حدثت سعة ففتحت التاء ، فهذا تعليل يظهر وجيهاً ، ويقبله من يسمعه ، لكنك ما إن تسأل القائل : فما بال : وردوها مرة بالتاء المفتوحة ، وأخرى بالتاء المربوطة في التعبير نفسه ؟ وهل يمكن أن تنقل هذا التعليل الوجيه إلى كلمات أخرى ، بل إلى كل الكلمات الأخرى ؟

إن التوجيه الجزئي غير مقبول ، والقرآن لا يقبل إلا النظام الكلي ، أي أن التعليل لابد أن يشمل الظاهرة كاملة في كل الكتاب ، فلا يصلح التعليل الذي لا يشمل كل كلمات الظاهرة ، أي لا تقل بتعليل لا يستقيم مع كلمات أخرى وردت بفتح التاء مثل معصية ، ولعنة ..

فالمبدأ المعتمد عندي في ذلك هو القانون الكلي الشامل لكل أمثلة الظاهرة ، أي ما تقوله عن فتح تاء نعمة يجب أن تقوله عن فتح تاء لعنة ، وعن فتح تاء معصية ، وعن فتح تاء غيابة ، وغيرها .

ولعلك تستحضر كتاب الديوان ونقد العقاد لقصيدة شوقي في رثاء مصطفى كامل ، وكيف أنه أعاد صياغتها بإعادة ترتيب أبياتها ، ولسنا هنا بنصر أحد الفريقين على الآخر ، أو تقييم هذا النقد ، لكن ما يعيننا هو أن القرآن الكريم أحق في أن يكون القانون المطبق عليه هو قانون الوحدة العضوية الذي طالب به العقاد ، والتزم به شعراء كثيرون من المدارس الشعرية ، ووصل إلى الذروة مع شعراء الواقعية .

فنرى أن كل قاعدة جزئية وإن بدت جميلة ، فهي مؤجلة حتى نستبين أنها صالحة للتطبيق على كل ما يشابهها .

وقد وجدت صديقاً يكلمني عن كلمة امرأة ، ويقول لي ما سمعه من فيديو اجتهد صاحبه لبيان أن القرآن يستخدمها عن التعبير عن زوج الرجل إن كانت مختلفة العقيدة معها أو كانت لا تتجب ، وكان يثني على الفكرة جداً ، ويتعصب لها من شدة إعجابه بها ، وكنت قد سمعت الفيديو ، ورأيت أن الملاحظة صحيحة جزئياً ، لكن الباحث لم يشمل كل استعمالات الكلمة ، ولهذا سألته :

لماذا قال إذن عن امرأة سيدنا إبراهيم امرأة ؟ فقال لأنها لم تكن قد أنجبت ، فقلت لها : فقد ماتت عائشة وغيرها من أزواج رسول الله صلى الله عليه وسلم )

الإخديجة ، ومارية القبطية ) دون أن تنجب ، ومع ذلك أطلق القرآن عليها زوج . وآدم عَلَيْهِ السَّلَامُ أطلق القرآن على حواء : كلمة ( زوجك ) من اللحظة الأولى وقبل أن ينجب منها .

ثم سألته مرة أخرى : وماذا عن امرأة عمران ، وكانت عقيدتهما واحدة بدليل الثناء عليهما فقد اصطفى الله آل عمران ، وذكر القرآن كلام امرأة عمران ، وكانت وهي تكلم ربها قد أنجبت ابنتها مريم عليها السلام ، ومع ذلك أطلق القرآن عليها وهي لا تختلف في العقيدة مع زوجها ومنجبة كلمة امرأة عمران .

ذلك لأن التعليل كان جزئياً لا يشمل ويستقصي كل الاستعمالات ، وإن كان مصيباً في تلك الجزئية ، أما التعليل الصالح ، فهو التعليل الشامل الكلي الذي يستوعب كل الأمثلة ، ولا يناهض بأمثلة لا ينسحب القانون عليها .

والإجابة الصحيح أن كلمة امرأة التي جاءت في القرآن الكريم ست وعشرين مرة : كان يربطها جميعاً رابط واحد هو الفردية ، أي انعدام الزوجية ، فالكلمة صالحة للتعبير عن البنت غير المتزوجة ، وعن المرأة المنفصلة عن زوجها بموت أو طلاق ، وعن المتزوجة التي يشوب علاقتها مع زوجها مانع انسجام ، مثل التنافر العقدي ، وكذلك العطل المانع للإنجاب وليس عدم الإنجاب بعد ، فامرأة زكريا الذي منع كلمة الزوجية عنها ليس أنها لم تنجب بعد ، لكن لأنها تحمل عطلاً دائماً يمنعها من الإنجاب فهي عاقر ، وكانت امرأة إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ عقيماً ، وكذلك النشوز ، كسوء المعاملة ، أو الخيانة .

هنا : يمكنك أن تعلل لإطلاق كلمة امرأة على الفتاة التي سيتزوجها موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ بعد ذلك لأنها كانت بعد غير متزوجة ، ويمكنك أن تعلل لإطلاقها على ملكة سبأ لأنها لم تكن متزوجة بعد ، وأن تعلل لإطلاقها على امرأة عمران لأنها تاملت وهي حبلى بابنتها ، وأن تعلل لإطلاقها على امرأة نوح ، وامرأة لوط ،

وامرأة فرعون ( عشرة استعمالات من المجموع الكلي البالغ ستة وعشرين ) لوجود التنافر العقدي ، وأن تعلل لإطلاقها على امرأة زكريا ، وامرأة إبراهيم (خمسة استعمالات ) لأنهما معطلتان عن الإنجاب ، وكذلك يمكن أن تعلل لاستعمالها عن امرأة العزيز (ثلاثة استعمالات ) لأحد سببين : تعطل الزوجة عن الإنجاب أو نشوز الزوجة ومحاولتها خيانة زوجها . وكذلك : امرأة أبي لهب لسوء العشرة ، ومثلها المرأة التي خافت من بعها نشوزاً ، وامرأة أرادت أن تهب نفسها للنبي ، فهي غير متزوجة . والمرأة الميتة التي لم تعد موجودة والكلام عن ميراثها ، ولا يبقى إلا استعمال واحد هو ما ذكر في آية الدين في سورة البقرة ، مما يشير إلى أن القرآن الكريم في اختيار كلمة ( امرأتين ) يريد أن تكون الشاهد من النساء ليس من الأزواج حتى تكون حرة في حكمها ، غير خاضعة لتأثير زوجها .

وهكذا كان التعليل شاملاً لكل الاستعمالات ، هذا هو التعليل الكلي .

ومرة أخرى انتشر فيديو شوهد ملايين المرات ، يفرق بين المدينة والقرية التي سبق أن فرقنا بينهما ، ويرى صاحبه أن القرية هي ما صفت لنوع واحد ، والمدينة ما حدث فيها اختلاط ، بمعنى أن قرية أهل الكهف التي ذهب إليها موسى عليه السلام والعبد الصالح ، واستطعما أهلها هي قرية لأن أهلها كلهم بخلاء ، فلما ظهر الرجل الصالح كما في قوله ( وكان أبوهما صالحاً ) أصبحت مدينة ..

وهنا قلت : لكن هذا الرجل كان ميتاً قبل حضور الضيفين الكريمين ، وما زال ميتاً بعد حضورهما ، فما زالت القرية كما هي ، لم يحدث اختلاط فيها ، وما زالت كلها بخيلة ، والرجل الصالح كان في الماضي ، ولم يبعث .

كما أن المكان الذي فيه الكنز هو تلك القرية ، بينما الغلامين اليتيمين ابنا الرجل الصالح يعيشان في مكان آخر هو المدينة فهما مكانان .

وقد أشار في تأكيد كلامه إلى قرية صاحب يس التي رفضت المرسلين الثلاثة

فسماها القرآن الكريم قرية ، ثم لما ظهر صاحب يس يطلب من قومه أن يتبعوا المرسلين ، فهنا جمع المكان بين الكفر والإيمان فصلح مع ظهور ناصح يس أن تسمى مدينة . وأيضاً نحن أمام مكانين بدليل استعمال الفعل جاء من أقصى المدينة إلى القرية .

ثم ماذا تقول لتعبير القرآن الكريم عن مكة الذي كان يعيش فيها الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ومن آمن ، والكفار في وقت واحد ، فهي بمنظوره يجب أن تكون مدينة ، بينما القرآن الكريم عبّر عنها بكلمة قرية إفراداً وتثنية وجمعاً ، فقال عنها : { هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِنْ قَرْيِنِكَ الَّتِي أَخْرَجْنَاكَ }<sup>(١)</sup> ، { عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ }<sup>(٢)</sup> ، { وَإِنُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ }<sup>(٣)</sup> ، فوصف مكة التي تجمع اختلاطاً بين الكفر والإيمان بالقرية ينسف منظور من قال بهذا التفريق .

فأنا أسمي هذا الرأي الوجيه الذي يصلح على مثال أو مثالين : بالمنبت ، لا أرضاً قطع ، ولا ظهراً أبقى ، فهو رأي لا يثبت للبحث العلمي ، ولأنه غير صحيح فهو زبد لن يلبث أن يذهب جفاء بمجرد أن تسطع الحقيقة التي تمكث في الأرض ، ومعنى ذهابه أنه غير مفيد ، لم نجن منه سوى ستر الحقيقة بعض الوقت .

ومما قيل : في تعليل عصا موسى وتحولها إلى جان وحية و ثعبان : (ويقول المشككون في كلام الله من المستشرقين: كيف يقول مرة إنها ثعبان مبین. ثم مرة أخرى يقول: { فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى } ، ومرة ثالثة يقول: { كَأَنَّهَا جَانٌّ } . ونقول: إن هناك فارقاً بين مختلفات تتناقض، ومختلفات تتكامل، فهي ثعبان مرة، وهي حية مرة ثانية، وهي جان؛ لأن الثعبان هو الطويل الخفيف الحركة، والحية هي الكتلة المخيفة بشكلها وهي متجمعة، والجان هو الحية المرعبة الشكل. فكأنها تمثلت في كل مرة بمثال يربع من يراه، وكل مرة لها شكل؛ فهي مرة ثعبان، ومرة حية،

(١) سورة محمد . الآية (١٣) .

(٢) سورة الزخرف . الآية (٣١) .

(٣) سورة الأنعام . الآية (٩٢) .

وثالثة جان، أو تكون ثعباناً عند من يخيفه الثعبان، وتكون حية عند من تخيفه الحية، وتكون جانا عند من يخيفه الجان، ولذلك تجد أن إشاعة الإبهام هو عين البيان للمبهم<sup>(١)</sup>.

والحقيقة أن التعليل منعزل عن الواقع الفعلي، لأن العصا أُلقيت في البداية فلم تتحول أول مرة، بدليل استعمال التشبيه { فَلَمَّا رَأَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ }<sup>(٢)</sup>، والتشبيه يعني أن العصا تشبه الجان لكنها ليست جانا، وفي الثانية تحولت بالفعل إلى حية بدليل العدول عن التشبيه: عنها: { فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى }<sup>(٣)</sup>. كان هذا في التدريب في سيناء، فلما حضر إلى مصر، تحولت بالفعل لكن بشكل أكبر: { فَإِذَا هِيَ تُعَبَّانٌ مُّبِينٌ }<sup>(٤)</sup> وكما ترى هي لم تتحول إلا إلى حية إلا في سيناء لتدريب موسى عليه السَّلَامُ، ولم تتحول إلى ثعبان مبین في سيناء، أما لما وصل إلى مصر أمام فرعون، فلم تتحول العصا أبداً إلا إلى ثعبان مبین في مصر لإخافة فرعون وقومه.

فهذا التعليل يكون قاصراً إذا انعزل عن مراعاة اختلاف مكان الحدث.

المثال السابق كنا نضربه لبيان أن التعليل لا بد ألا يقفز على الاستعمال القرآني، ولا بد ألا تعارضه الاستعمالات، وليس أن تجتمع كل الاستعمالات على نقضه.

ومن ذلك أيضاً قولهم: إن نوحاً أبو البشرية الثاني، فتقول كيف؟ والقرآن يقول: إن هناك ذرية للمحمولين معه مثل قوله: { ذُرِّيَّةً مِّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ }<sup>(٥)</sup>، ثم انظر إلى قوله تعالى: { أَهْبِطْ بِسَلْمٍ مِّنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ أُمَمٍ مِّمَّنْ مَعَكَ }<sup>(٦)</sup> فقله أمم ممن معك تقرر أن من معه سيصيرون أمماً، ولا يجوز أن تقول: لعل

(١) تفسير الشعراوي، الجزء السابع، ص ٤٢٨٠.

(٢) سورة طه، الآية (٢٠).

(٣) سورة النمل، الآية (١٠).

(٤) سورة الأعراف، الآية (١٠٧).

(٥) سورة الإسراء، الآية (٣).

(٦) سورة هود، الآية (٤٨).

المقصود: الأمم التي حملها من غير البشر ، فقلت ، لكن ( من ) عاقلة . كما أن الآية لها بقية تتحدث عن عذاب بعض الأمم التي معه: { وَأُمَمٌ سَنَمَتَهُمْ ثُمَّ يَسْهُرُونَ عَذَابٌ أَلِيمٌ } <sup>(١)</sup> ، فهل الحيوانات تُعَذَّب ؟

فهذه أمثلة لآراء سائدة ، بل ربما راسخة ويأبى القرآن الكريم إلا معارضتها ، فعلى أي منطوق يستندون ؟؟

إن هذا الكتاب لا يتعارض مع بعضه البعض ، فيجب أن يكون كل رأي منسجماً مع كل القرآن .

فما أقصده بالوحدة العضوية هو أن يكون الرأي أو القانون اللغوي قابلاً للتطبيق على جميع الاستعمالات بشكل استقصائي ، وأن يكون منسجماً مع القرآن ، لا تعارضه آية .

(١) سورة هود . الآية (٤٨)

## المبدأ الرابع : المغايرة :

يشير مصطلح المغايرة إلى تبرير الاختلاف بين تعبيرين متشابهين إلا في جزئية مثل تلك المغايرة : { وَجَاءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ يَسْعَى } <sup>(١)</sup> في سورة القصص ، ويقول في سورة يس: { وَجَاءَ مِّنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى } <sup>(٢)</sup> . فالمغايرة هي مفتاح الحل ، إنها الدليل الذي يقودك إلى الكنز . وعندما تصل إلى الإجابة تنفك طلاسم كل شيء ، ولاشك أن المغايرة هي اختبار صدق لكل قانون ، فعندما تصل إلى قانون كالفرق بين الفعلين أتى وجاء ، ثم تجد تعبيرين فيهما مغايرة مثل : { فَلَمَّا أَنهَا نُودِيَ يَمُوسَى } <sup>(٣)</sup> في سورة القصص ، ويقول في سورة يس: { فَلَمَّا جَاءَهَا نُودِيَ أَنْ بُورِكَ مَن فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا } <sup>(٤)</sup> . فهنا تكون المغيار هي اختبار الصدق لما وصلت إليه من قانون لغوي لأن التعبيرين يعبران عن ذهاب موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ للشجرة ، فهو موقف واحد بتعبيرين مختلفين يكشفان الفرق بين الفعلين .

ولأضرب مثلاً بالمغايرة بين تعبيرى الذين كفروا ، والكافرين ؟؟ ثم بعد ذلك نقف على صدق اختبار القانون الذي نصل إليه من خلال تطبيق هذا القانون على مغايرة تم فيها استعمال الاسمين معاً في آية واحدة .

إن الكافرين هي الاسم العام للمتصف بصفة الكفر ، وهي تعبر عن كل من اتصف بتلك الصفة على مر العصور ، فلا يشترط اجتماعهم في زمن واحد ، أما الاسم الموصول فهو اسم زمني يرتبط بالذين يحملون الصفة في عصر واحد .

ومن هنا حمل الاسم الموصول فكرة الطباقية الزمنية ، أي لما يقول رب العزة : يا

(١) سورة القصص . الآية (٢٠)

(٢) سورة يس . الآية (٢٠)

(٣) سورة طه . الآية (١١)

(٤) سورة النمل . الآية (٨)

أيها الذين كفروا ، فهو يخاطب الذين كفروا في كل عصر على حدة ، لأنه لا مبرر لنداء من لم يولدوا بعد . فإن كان التعبير العام (الكافرون) يعبر عن المتصفين بالصفة على مر العصور ، فالذين كفروا أيضاً يمكن أن تعبر عن كل العصور كذلك ، لكن كل عصر على حدة ، فإن كانت كلمة الكافرين تعبر عن الموصوفين بسلة واحدة ، فالذين كفروا تعبر عنهم بطريقة درجات السلم ، فإن اعتبرنا الزمن في تعاقب أجياله سلماً له درجات ، فكل درجة منه تسمى الذين كفروا ، فإن أزلت الأفراد ووضعتم بدون تحديد الطبقة الزمنية أي في سلة واحدة فهم الكافرون .

وكما قلنا إن اجتماع التعبيرين في صعيد واحد هو اختبار صدق للقانون ؛ لذلك انظر إلى هذه الآية التي جمعت الكلمتين معاً في سياق واحدة :

• ﴿ أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن يَنۡخُذُوا عِبَادِي مِّنۡ دُونِيۤ أَوۡلِيَآءَ إِنَّا أَعۡنَدُنَا جَهَنَّمَ لِلۡكَافِرِينَ نُزُلًا ۗ ﴾ (الكهف) .

استعمل أولاً : (أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا) ، واستعمل ثانياً (إِنَّا أَعۡنَدُنَا جَهَنَّمَ لِلۡكَافِرِينَ نُزُلًا) وأنت تعلم بالقطع أننا لا يمكننا التبديل ، فلا يمكن أن نقول : أفحسب الكافرون ، ثم نقول : إنا أعتدنا للكافرين نزلاً . وامتناع التبديل بين كلمتين يظن الناس أنهما متساويتان يؤكد عدم التساوي ، واستقلالية كل كلمة منهما في التعبير عن نفسها .

إن اجتماع التعبيران معاً : (الَّذِينَ كَفَرُوا) ، (لِلۡكَافِرِينَ) يعني المغايرة بينهما : فالذين كفروا هو تعبير عصري يعبر عن كل عصر على حده ، فهو مناسب لطبقات الزمن ، أما الكافرون فهو تعبير عام يعبر عن كل من اتصف بالصفة على مر الأزمان ، دون مراعاة للطبقية الزمنية ، ولهذا كان استعمال الذين كفروا أولاً لأنه يعبر عن متخذين للعباد آلهة على مر العصور ، فجاء التعبير الطبقي ليناسب الذين اتخذوا عزير من اليهود في وقتهم ، ثم الذين اتخذوا المسيح وأمه في وقتهم

، ثم الذين اتخذوا الملائكة في وقتهم ، ويأتي ( الكافرون ) صالحة لجمع كل هؤلاء وغيرهم في جهنم دون ارتباط بطبقية العصور . أي كل طبقة زمنية عبت عبداً من عباد الله ، لكن كل الكافرين في جهنم . والتعبير عن الطبقة بالاسم الموصول ، والتعبير عن العموم بالاسم العام ( للكافرين ) .

وانظر إلى آية أخرى أيضاً جمعت التعبيرين معاً :

• ﴿ وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ إِنَّ خِفْتُمْ أَنْ يُفْتِنَكُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا ۗ إِنَّ الْكٰفِرِينَ كَانُوا لَكُمْ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴾ (١٠١) ( النساء ) .

عند الموقف الذي حدث في زمن محدد وهو خوف الفتنة ، وهو مخاطبة فئة مؤمنة في عصر ما ، فجاء ذلك في ظرف زمني فلم يقل : إذا خفتم أن يفتنكم الكافرون ، بل قال ( إِنَّ خِفْتُمْ أَنْ يُفْتِنَكُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا ) ليكون هذا خطاب لكل مجموعة مؤمنة في زمنهم إذا خافت من الذين كفروا في زمنهم ، فهذه الفئة المؤمنة لن تخاف أن يهجم عليها الكافرون من أزمنة مختلفة ، بل لن تخاف إلا من كافري عصرها ، وهنا لا يصلح إلا تعبير الطبقة الزمنية ( الَّذِينَ كَفَرُوا ) ليحقق أمرين : الأول هو المعاصرة الزمنية ، والاقتصار على الزمن الذي يعيشه المتحدث عنهم ، والأمر الثاني : هو تكرارية الحدث في كل زمن . ثم لما انتقل إلى الحديث عن موقف الكافرين بشكل عام على مر الأزمان انتقل من التعبير ( الَّذِينَ كَفَرُوا ) إلى التعبير ( إِنَّ الْكٰفِرِينَ كَانُوا لَكُمْ عَدُوًّا مُّبِينًا ) فانتقل عند الحكم العام من الاسم الخاص إلى الاسم العامل الشامل لكل الأزمان ، أي في كل زمن هم عدو مبين للمسلمين . ويكون المعنى : يا أهل كل عصر احذروا من الذين كفروا في عصركم .. لأنهم لا يختلفون عن كافري كل عصر .

وانظر إلى المقابلة بين : { الَّذِينَ آمَنُوا } ، { الْكٰفِرِينَ } وقد تكرر ذلك في أكثر من

آية :

- ﴿وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَيَمْحَقَ الْكٰفِرِينَ﴾ (١٤١) ﴿آل عمران﴾ .
- ﴿يٰٓاَيُّهَا الَّذِيْنَ ءَامَنُوْا لَا تَتَّخِذُوْا الْكٰفِرِيْنَ اَوْلِيَآءَ مِنْ دُوْنِ الْمُؤْمِنِيْنَ اُرِيْدُوْنَ اَنْ يَّجْعَلُوْا لِهٰٓءِ عَيْبِكُمْ سُلْطٰنًا مُّبِيْنًا﴾ (١٤٤) ﴿النساء﴾ .
- ﴿ذٰلِكَ بِاَنَّ اللّٰهَ مَوْلٰى الَّذِيْنَ ءَامَنُوْا وَاَنَّ الْكٰفِرِيْنَ لَا مَوْلٰى لَهُمْ﴾ (١١) ﴿محمد﴾ .

إن مقابلة الاسم الموصول (الَّذِينَ ءَامَنُوا) بالاسم العام (الْكَافِرِينَ) والأول يفيد الظرف الزمني الذي فيه فحسب ، والثاني يعبر عن كل من يتصف بالكفر على مر العصور .. هي مقابلة دقيقة ، لأن الله يخاطب الذين آمنوا ، فهو يخاطب المؤمنين جميعهم ، لكن كل عصر على حده ، ويتجدد الخطاب بالاستبدال الطبيعي ، فكل عصر توجد فيه مجموعة يطلق عليها الذين آمنوا ، فهو يخاطب مجموعة كل عصر ، وكل مجموعة منهم مأمورة بمهمة محددة ، فالمنطقي ألا يخاطب المؤمنين عموماً ، لأن خطاب المؤمنين جميعاً ، يشمل من مات وهذا لا يجوز ، ويشمل من لم يولد بعد ، وهذا لا يجوز أيضاً .

إذن يتضح أن التوضع متحقق في استعمال الاسم الظرفي (الذين آمنوا) لأن هذا التعبير برغم أنه يعبر عن فترته الزمنية فحسب ، إلا أنه مع الله عَزَّ وَجَلَّ يمتد على مدى الزمن ، لأنه يكون كما الراكب في القطار : هو واحد ، وممتد ، لأنه لما ينزل ويركب غيره ، فكل واحد منهم على حده ، وهم معاً ممتدون على مدى الزمن ، فالدنيا كالقطار ، والذين آمنوا كالراكب ، فإذا انتهى عصرهم ، ركب راكب جديد (مجموعة أخرى) يطلق عليها أيضاً (الذين آمنوا) فإذا خاطب الله عَزَّ وَجَلَّ الذين آمنوا ، فهو يخاطب الجميع ، لكنه يخاطب كل مجموعة على حدة ، فحين تأتي المجموعة الجديدة تسمع الأمر فتتفذه ، وهكذا كأن أمر الله تعليمات معلقة على القطار ، يطلع عليها الراكب ، ويطلع عليها من يأتي بعده لما يحل محله ، وهكذا يمكن أن نسمى تلك العملية : المنقطعة المتصلة .. الديمومة بالإحلال .

أما التعبير المقابل وهو استعمال الكافرين في مواجهة الذين آمنوا .. فالأمر

موجه للذين آمنوا فلا يصلح بشكل عام كما قلنا ، بل يجب أن يكون للجميع : لكن على مراحل ، كل مرحلة على حدة ، ويكون موقف كل جماعة متحداً نحو كل كافر في أي زمن ، حتى من سبق ، فعليه أن يتخذ موقف من سبقه تجاه هذا الكافر ، ولو ظهر في الزمن السابق يفعل نفس موقفه مع كافر الزمن السابق ، وكذلك ، يتخذ نفس الموقف مع الكافر القادم ، فهو موقف ديمومي من كل كافر ، فلا ينبغي الاقتصار على القول (الذين كفروا) لأن هذا موقف سرمدي من كل كافر ، ولو بالقلب .

وانظر إلى اختبار الصدق الثالث في قوله تعالى :

• ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكُفْرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ﴾ (١١) ﴿محمد﴾ .

فإن الله مولى الذين آمنوا ، أي مولى كل مجموعة منهم ، إلى أن تحضر الأخرى فيكون مولاها ، وهكذا ، لكن مع عدم يمكن أن تجمع المجموعات كلها في سلة واحدة .

واختبار صدق آخر :

• ﴿وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكُفْرِينَ﴾ (١٤١) ﴿آل عمران﴾ .

الحديث عن غزوة أحد ، فهو تمحيص الذين آمنوا أي المجموعة المعاصرة للنبي صلى الله عليه وسلم التي شاركت في المعركة ، وعند التمحيص حتى لو سحبت المعنى ليكون على مدى الزمن فلا يناسبه إلا الذين آمنوا ، ليكون التمحيص لكل مجموعة زمنية على حده ، وتصنع المجموعات المتراكبة التي تحل بعضها محل البعض ، الامتداد الشامل .. أما محق الكافرين لأن في هزيمة الذين كفروا هزيمة لكل من بعدهم .

كما رأيت نجحت المغايرة في بيان صدق القانون المتوصل إليه .

## المبدأ الخامس : المقدمة الأولى :

من الأسس العلمية أن لا تكون هناك بديهيات مسلم بها دون تمحيصها ، فلا يجب أن نستند إلى حديث لم يقطع العلماء بصحته ، أو رواية متداولة ، وقد رأينا كيف أن مقولة ما منعت الناس أن تشير إلى ذي القرنين الحقيقي ، لأن مخترع الرواية جعل صاحب الشخصية الحقيقة مع ذي القرنين ، فمن يظن أنه هو؟ فمن يقول : ملك العالم اثنان مؤمنان ، ذو القرنين وسليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ ، فإن كان ذو القرنين هو سليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ ، فبربك من سيصل إلى تلك الحقيقة وهو يسمع أن سليمان وذا القرنين اثنان ، سيبحث في كل الناس إلا سليمان ، وستظل الحقيقة غائبة معطلة بسبب مقولة لم تمحص ، وكما قلت ما ضرنا من التمهيص ، إن كانت حقيقة ، فلا يضير الذهب فتنه بالنار .

إن المقولة السابقة ترتب عليها الانصراف عن الشخص الصحيح لذي القرنين ، لأن القائل جمع في قوله اثنان ، فكان من يبحث عن ذي القرنين الذي هو سليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ نفسه ، لا يخطر في باله إلا البحث عن كل البشر إلا سليمان ، لأن الواو تقتضي المغايرة ، فلذلك انطلقاً من تلك المقولة أصبح من المحرمات أن تطرح اسم سليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ من ضمن المرشحين لمنصب ذي القرنين ، كل الأسماء قابلة إلا الطرح إلا هو ، بينما لو افترضته لن تجد غيره يقوى على منافسته ، وستجد أن كل كلمة في آيات سورة الكهف تقول : هو سليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ .

وما السبب في انصراف علماء المسلمين عن الوصول إلى شخصية أكد القرآن وأكدوا أن لا ملك مثل سليمان ، ثم لما يبحثون عن ملك لا مثيل له : يكون سليمان وحده هو المستبعد ، فهلا تأكدوا أولاً من المقولة الأولى قبل اعتمادها ، ووقتها سيجدون أن أول من قالها أحد التابعين .

ولا يعلمون أن الله لا يمكن لكافر ملك الدنيا أبداً ، وإلا لقضى على كلمة التوحيد لقرون ممتدة .

وأنا هنا لست بصدد إثبات أنه سليمان ، فقد أثبتته في كتابي سليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ ذو القرنين ، ويكفي أن أقول : هل يمكن أن يعيش ذو القرنين في زمن غير تلك الأزمنة الثلاثة : ما قبل سليمان ، وأثناء سليمان ، وما بعد سليمان ؟ بالطبع لا بد أن يكون في أحد الأزمنة الثلاثة ، فلنناقش إذن المسألة ، لا يمكن أن يكون في عهد سليمان : لأنه لن يملك الدنيا في وقت واحد اثنان ، فنحن إذن بين أحد أمرين : ذو القرنين الذي لا يمكن أن يجتمع مع سليمان في زمن واحد لا بد أن يكون قبل سليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ أو بعده ، فأما بعده فمن المستحيل لأن لسليمان دعوة مستجابة هي أن يهب الله له ملكاً لا ينبغي لأحد من بعده . إذن لا يمكن أن يكون ذو القرنين بعد سليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ ( كل الأسماء التي رشحوها كانت بعد سليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ ) .

ومن المستحيل أن يكون ذو القرنين بعد سليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ لسبب بسيط هو أن الله ادخر لسليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ القطر : { وَأَسْلَنَّا لَهُ عَيْنَ الْقَطْرِ }<sup>(١)</sup> وتقديم (له) ، ( للتخصيص ، فكيف يدخر الله له عين القطر ، ثم يأتي أحد قبله فيستخدمه ؟؟ إذن القطر الذي استخدمه ذو القرنين في بناء الردم لا يمكن أن يتاح لأحد قبل سليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ الذي ادخره الله له .

وباستحالة أن يكون ذو القرنين قبل سليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ وبعده ، فليس أمامنا إلا أحد احتمالين : أنه غير موجود ، أو أن يكون هو سليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ ، ولأن القرآن هو من حدثنا عنه فهو موجود قطعاً ، ومن ثم فهو سليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ ، وليس هذا الموضوع بمكان لإثبات باقي الأدلة التي تصل إلى أكثر من بضعة عشر دليلاً ، لكن ما يعنينا أن من قال بتلك المقولة صرف الناس عن البحث مجرد

(١) سورة سبأ . الآية (١٢) .

البحث في كونه سليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ .

لذلك من الأسس العلمية للدراسة الصحيحة هو عدم البدء بالمقدمة الثانية ، بل لابد أن تضع كل شيء على مائدة البحث ، فلا يمكن أن تبدأ بحثاً علمياً من المقدمة الثانية ، فكل ما تصل إليه من نتائج لن يكون صحيحاً إذا كانت المقدمة الأولى التي سلمت بصحتها ولم تناقشها غير صحيحة ، ولا شك أن إهمال الباحثين لذلك المبدأ كان نعمة ساقها الله لي ، لأنهم انصرفوا عن الوصول إلى الحقيقة حتى طبقت مبدئي هذا ، لأنني أبدأ دائماً من المقدمة الأولى ، لهذا لم أستبعد سليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ من البحث ، ولم ألبث أن وجدت المقولة التي تسببت في استبعاده هي مقولة متهافئة غير صحيحة ، ولا شك أن رؤية نور الحقيقة يمنع الانصراف عنها ، ولا تلبث بعد ذلك أن تجد أن كل شيء ينسجم معها ، حتى لما درست آيات سورة الكهف الخاصة به وجدت أنها تكاد تنطق باسمه . ولم نجن من المقولة الصارفة إلا أنها عطلت العقل العربي على أن يصل إلى الحقيقة قروناً عدة .

وأنا لا أعجب لما وصلت إليه ، لكنني أعجب ممن سبقونا كيف لم ينتبهوا إليه وهو كالشمس التي لا يجب ألا تختفى عن هذه المنصب . وكما قلت إن صحة المنهج هي ما تأخذ بيدك إلى الحقيقة التي ربما تظل مئات السنين أمام أعين ذات بصر مذهل ولا يرونها لسوء المنهج .

فمن المسلمات العلمية ألا تكون هناك بدهيات مسلم بها دون تمحيصها ، كمثل تلك المسلمة عن ذبح يحيى عَلَيْهِ السَّلَامُ بينما القرآن يقرر أنه سيموت ، وسيكون موته في سلام ، والموت غير الذبح لأن الذبح قتل ، والموت خلاف القتل كما جاء في قوله تعالى : { أَفَأَيْنَ مَاتَ أَوْ قُتِلَ }<sup>(١)</sup> ، ولا يجتمع الذبح مع السلام .

ومن المقولات غير الصحيحة هو أن يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ ماتت أمه ، وحضرته

(١) سورة آل عمران . الآية (١٤٤) .

خالته إلى مصر مع أبيه ، بينما التوراة نفسها تقرر أن ليئة خالته قد ماتت ، ودفنها يعقوب عليه السَّلَامُ قبل حضوره إلى مصر ، ومن المقولات أيضاً أن يوسف له ولدان : منسى وأفرايم ، بينما القرآن يخبرنا عنه بأنه هلك : { وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِمَّا جَاءَكُمْ بِهِ حَتَّى إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَنْ نَبْعَثَ اللَّهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا } (١) والهلاك للمؤمن ألا يكون له ذرية كما عرفها رب العزة في سورة النساء لما كان يتكلم عن الكلاله ، فقال : { إِنْ أُرْسِلُوا هَلَكَ لَيْسَ لَهُ وَوَلَدٌ } (٢) فعرف الهلاك بقوله : ( لَيْسَ لَهُ وَوَلَدٌ ) .

وأرى أنه برغم كثرة الكتب التي تناولت كتاب الله وعظمة العلماء الذين تناولوا الكتاب إلا أنه لم يتوافر له دراسته دراسة علمية تنطلق من قانونه الخاص . وما أكثر ما يقترب العالم من الوجهة الصحيحة للمقصد القرآني من الاستعمال ثم ينصرف عنها بسهولة شديدة لرواية سابقة لا يخضعها للدراسة ، ولا يعرف هل هي صحيحة أم لا ، وحتى لو كان من نقلها له أستاذه ، فهلا توقف عنها فقد تكون زلة عالم ، إن البحث العلمي المتجرد هو من لا يرضى على الشيء مكانة صاحبه ، فهو ينظر لما فعل بعين القداسة ، فيكون حب أستاذه يغطي عينيه ، وكما قال الإمام الشافعي:

وَعَيْنُ الرِّضَا عَنْ كُلِّ عَيْبٍ كَلِيلَةٌ  
وَلَكِنَّ عَيْنَ السُّخْطِ تُبَدِّي الْمَسَاوِيَا

فما أجدنا أن يكون العالم ينظر لتراث أستاذه بعين السخط ، إذن لكان أكثر حُباً لهذا الأستاذ .

وقد امتلأت كتب التراث بكثير من الإسرائيليات أثقلت كاهل التراث ، وأخذت يريق الذهب فيه بترابها الذي تراكم عليه ، وذلك لأن العالم كان يتحرز أن يترك

(١) سورة غافر. الآية (٣٤) .

(٢) سورة النساء. الآية (١٧٦) .

علمًا خشية أن يضيع ، وأرى أن الصواب أن يكون أكثر تحرزًا فيما ينقله في كتابه إلى الأجيال القادمة ، لأنها ستكتسب قداسة بمكانته ، فإن كانت باطلًا فهي تمتلك حصانة ، وتعيش طويلًا وهي الباطل بعينه .

وأرى أن العالم الكبير قد يخالفه الصواب لو استخدم منهجًا خاطئًا ، لكن يقينًا يستطيع تلميذه أن يصل إلى الصواب لو اتبع المنهج الصحيح .

فلا تستقيم لك حقيقة إلا إذا أعطيتها هي نفسها حقًا . ولا يدوم باطل اكتسب وقفته الطويلة من مكانة عالم ، فلن يلبث أن ينهار مهما طال الزمن ، لكن الحق أن يكون في ذات الشيء ، وليس في ثوب ألبسه إياه أحد المقدسين .

وأرى أن المنهج الصحيح هو وحده ما يوصل إلى نتائج صحيحة ، وكم من علماء عقولهم من ذهب نجد رأيهم مردودًا بأدلة ماحقة ، لماذا ؟ لأن العالم الكبير برغم عقله العظيم لم يتبع منهجًا صحيحًا . والمنهج الصحيح هو ما يأخذ بيدك إلى الصواب .

## المبدأ السادس : فيه الإجابة :

يقول رب العزة : { مَا فَرَطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ }<sup>(١)</sup>

في الكتاب إذن إجابة لكل شيء ، وقد وجدت القرآن يجيب عن أسئلة تاريخية مازال العالم حائرًا فيها ، من ذلك : قولهم إن يوسف له ولدان منسى ، وأفرايم ، بينما القرآن يحسم الأمر قد مات يوسف عليه السلام هالكًا بلا ذرية . ويقولون إن يحيى ذبح ، فيأتي القرآن ليقرر : أنه لن يقتل ، لكنه يموت ، ويموت في سلام ، ولا يجتمع الذبح مع الموت ، ولا يجتمع الذبح مع السلام .

ويقولون : إن فرعون موسى هو رمسيس الثاني ، فيقول القرآن الكريم : وأورثناها قومًا آخرين ، أي أن فرعون موسى لم يخلفه ابنه ، فكل ملك خلفه ابنه فليس هذا الفرعون ، ويقول القرآن ودمرنا ما كان يصنع فرعون وقومه وما كانوا يعرشون .. أي أن كل من له آثار بقيت بعده فليس هو ..

ويقولون : لوط ابن أخي إبراهيم ، فيأتي القرآن الكريم ويقول : قوم إبراهيم وقوم لوط .. يا الله ، فلكل منهما إذن قوم ، القرآن إذن يصحح التاريخ .

لهذا لا تستهن بإشارة ما ، فهي تشير إلى شيء وإلا لماذا ذكرها ، وقفت عند قوله تعالى : { فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَنْ يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَهُمَا }<sup>(٢)</sup> ،

إنها مشاجرة جديدة ، بطلاها : الذي كان بالأمس من شيعته ، وهكسوسي آخر حل محل قتيل الأمس ، وإن كان القرآن وصف قتيل الأمس بأنه من عدوه ، فلا بد أننا اليوم في تكرار جديد لمشاجرة الأمس : هذا من شيعته ، وهذا من عدوه ، وقد

(١) سورة الأنعام . الآية (٣٨) .

(٢) سورة الأنبياء . الآية (٥٧) .

أراد موسى أن يبطش هذه المرة بالذي من شيعته ، فهنا فضح أمره الذي كان لا يعرف سواه ، لأنه الوحيد الذي شهد قتل موسى للهكسوسي . وهذا الانفضاح هو ما دفع موسى للهرب من مصر .

لكن ما يعنينا هنا : كيف وصف الذي من شيعته بأنه ( عدو لهما ) .. أي عدو لموسى ، وفي الوقت نفسه عدو للهكسوسي .

كيف تحول الذي من شيعته إلى عدو لموسى ، وفي الوقت نفسه عدو للهكسوسي في الوقت نفسه ؟

لا تفسير إلا أن القرآن يريد أن يشير أن هذا الهكسوسي الثاني سيؤمن بموسى عَلَيْهِ السَّلَامُ ، وهكذا يتحدان في عداوة هذا الشيطان الذي عرفه موسى على حقيقته ، وأنه ليس من شيعته ، ولكنه غوي مبين .

ولا يفوتنا أن نقول : لقد ذكر عن الهكسوسي الأول ( من عدوه ) لكنه لما تحول الذي من شيعته إلى العداوة لم يقل ( عدوه ) ، بل ( عدو لهما ) وهنا لابد أن تقف على دلالة أمرين : التثنية العجيبة التي تجمع بين موسى والهكسوسي ( الذي كان سلفه بالأمس عدو موسى ) ضد الذي كان بالأمس من شيعته موسى ، وقد نفهم انقلاب الذي من شيعته إلى العداوة ، لكن كيف إن أصبح عدواً لموسى ، يكون عدواً للثنتين ؟ ولماذا زاد اللام ؟؟

متطرفة بعد الألف تكتب على السطر ، فلماذا يكتبها الخط القرآني أحياناً على واو ؟ قد تقول لأنها مرفوعة ، لكن ماذا لو كانت تأتي في حالة الرفع مرة على السطر ومرة على واو ؟ هنا تبطل الحجة بأن السبب في كتابتها على واو : الرفع .. وما الكتابة على الواو إلا لعلة بلاغية .. هذه العلة هي ما يبرر تسميتها بهمزة الخصوص ..

فماذا تقول في هذين التعبيرين: { وَمَا دُعُوا الْكٰفِرِينَ } ، { وَمَا دُعَاءُ الْكٰفِرِينَ } فالاختلاف في الرسم الكتابي لا يرجع إلى أي موقع إعرابي لتوحد الإعرابي في التعبيرين اللذين بلا اختلاف بينهما .

ومنهجنا أن اللغة لا تختلف عن أي شيء علمي ، فأنت لا تخترع في اللغة ، لكنك تكتشف ما هو موجود ، فنيوتن لم يخترع الجاذبية ، لكنه انتبه لوجودها ، والأمر يتم بافتراض بعد افتراض ، حتى تستقيم جميع الاستعمالات لافتراض ما هنا يتجاوز الافتراض كونه افتراضاً إلى حقيقة .

وأداة التحقق من صحة الافتراض هو المغايرة وهي مقارنة استعمالين مكررين إلا في نقطة واحدة هي موضع البحث . بغية نجاح الفرض في تبرير المثالين المتقابلين معاً ، ولا يكفي هذا ، بل لابد من تكرار تلك الآلية في جميع الاستعمالات بشكل استقصائي أو شبه استقصائي ، وأقصد بشبه الاستقصائي أن يتأكد الباحث بنفسه من صحة فرضه في جميع الاستعمالات بشكل استقصائي حتماً ، لكن يكفي بعرض أكبر قدر منها لأن المقام لن يتسع لعرضها كلها ، كما فعلنا في ألف المساواة ، فهذا الحرف تكرر في القرآن الكريم عشرات الآلاف مما يستحيل معه عرض كل الأمثلة بشكل استقصائي ، هنا يتيقن الباحث من فرضه على كل الاستعمالات ، لكن لا يعرضها كلها للمتلقي ، مع الميل إلى عرض أكبر قدر ممكن مما لا يترك للقارئ فرصة للتردد .

# الدراسة التطبيقية

١. لام التفرغ .
٢. نون الوجود .
٣. تاء الاستحضار .
٤. ياء الإخفاء
٥. ألف المساواة .
٦. همزة الخصوص .

# الحرف الأول

## لام التفرغ

إنها لام زائدة نحويًا ، لازمة معنوية لأداء معنى التفرغ للشيء . ستجدها عندما تجد الفعل متعدياً بذاته ، فتفصل بين الفعل وضمير المفعول به ، أو تفصل بين الاسم وضمير الإضافة .

فالفعل سمع مثلاً متعد بذاته ، فهو يقبل ضمير المفعولية ، وقد ورد متعدياً بذاته غير مرة في القرآن الكريم : {بَعْدَ مَا سَمِعَهُ} <sup>(١)</sup> ، {لَأَسْمَعَهُمْ} <sup>(٢)</sup> ، {إِذْ سَمِعْتُمُوهُ} <sup>(٣)</sup> ، {هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ} <sup>(٤)</sup> ، {كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا} <sup>(٥)</sup> ، {فَأَسْمَعُونَ} <sup>(٦)</sup> . فالفعل لا يحتاج إلى اللام ليصل إلى مفعوله ، ومع ذلك وجدنا اللام تدخل على الفعل غير المحتاج لها نحويًا لتضفي عليه وظيفتها الدلالية وهي خاصية التفرغ .

والفرض الذي تطرح الدراسة هو أن تلك اللام هي لام وظيفية تؤدي وظيفة التفرغ .

(١) سورة البقرة . الآية ( ١٨١ )

(٢) سورة الأنفال . الآية (٢٣) .

(٣) سورة النور . الآية (١٢) والآية (١٦) .

(٤) سورة الشعراء . الآية (١٧٢) . .

(٥) سورة الجاثية . الآية (٨) . سورة لقمان . الآية (٧) .

(٦) سورة يس . الآية (٢٥) .

## ١. أَكَمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ :

الفاعل يكمل متعدٍ بذاته ، يقول الله عَزَّ وَجَلَّ : { وَلِتُكْمَلُوا الْعِدَّةَ }<sup>(١)</sup> ، لكنه وضع لام التفرغ في قوله تعالى :

• ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ (٢)

(المائدة).

جاء الفعل بلام التفرغ (أَكَمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ) فلم يقل أكملت دينكم . وقد بكى عمر بن الخطاب لما نزلت هذه الآية ، فسأله النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عما يبكيه ، فقال له : أبكاني أنا كنا في زيادة من ديننا ، فأما إذ كمل ، فإنه لم يكمل شيء إلا نقص! فقال: صدقت.

ويختلف التمام عن الكمال فالإتمام مرحلة بعد الإكمال ، فمن بين بيتا ويستوفى ما ينقصه فقد أكمله ، فإذا استوفى له الزينة فقد أتمه ، ولهذا استخدم الكمال في الدين لأنه أساس لا يستغنى عنه ، واستخدم التمام في النعمة . ووصف يعقوب النبوة بأنها تمام { وَيَتِمُّ نِعْمَتُهُ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَىٰ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ }<sup>(٢)</sup> ، فدل هذا على أنه ليس بعد التمام شيء لأنه ليس في دنيا البشر بعد النبوة شيء. كذلك استعملها رب العزة للتعبير عن كون المسلمين خير أمة أخرجت للناس ، وليس بعد هذا شيء بالنسبة للمسلمين .

وقد أثير سؤال هل معنى ذلك أن قبل هذه الآية التي نزلت في أواخر الإسلام كان الدين ليس بكامل؟ وقد حاول المفسرون أن يهربوا من ذلك لتأويل الدين ، وأن المقصود أنه اليوم أزال الخوف عنهم ، ونرى أنه لا ينبغي أن نصرف النص عن ظاهره لعجزنا عن تبريره ، لأن هذا ليس عيب النص ، وقد يأتي فيما بعد من

(١) سورة البقرة. الآية (١٨٥).

(٢) سورة يوسف. الآية (٦).

يفتح الله عليه بالإجابة . وقد ذكر الرازي في ذلك رأياً عن القفال : أن الدين ما كان ناقصاً ألبتة، بل كان أبداً كاملاً، يعني كانت الشرائع النازلة من عند الله في كل وقت كافية في ذلك الوقت، إلا أنه تعالى كان عالماً في أول وقت المبعث بأن ما هو كامل في هذا اليوم ليس بكامل في الغد ولا صلاح فيه، فلا جرم كان ينسخ بعد الثبوت وكان يزيد بعد العدم، وأما في آخر زمان المبعث فأَنْزَلَ اللهُ شريعة كاملة وحكم ببقائها إلى يوم القيامة، فالشرع أبداً كان كاملاً، إلا أن الأول كمال إلى زمان مخصوص، والثاني كمال إلى يوم القيامة فلاجل هذا المعنى قال: اليوم أكملت لكم دينكم.

وقد وضع لام التفرغ لبيان أن الدين قد اكتمل فلا يحتاجون إلى زيادة أبداً ، وأن لام التفرغ أفادت أن الكمال قد أفرغ من كل نقيضه .

## ٢. وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا :

الفاعل عصى متعد بذاته ، فيمكن أن تضع معه ضمير المفعولية ، فتقول : عصيته ، فلا حاجة له لأن يتعدى باللام ، أي أن تلك اللام هي لام التفرغ . وانظر إلى استعمال القرآن للفعل متعدياً بنفسه :

- { أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي }<sup>(١)</sup> .
- { إِنْ عَصَيْتُهُ }<sup>(٢)</sup> .
- { فَإِنْ عَصَوَكَ }<sup>(٣)</sup> .
- { إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي }<sup>(٤)</sup> .
- { وَعَصَوُا الرَّسُولَ }<sup>(٥)</sup> .
- { فَعَصَوْا رَسُولَ رَبِّهِمْ }<sup>(٦)</sup> .
- { وَعَصَوُا رَسُولَهُ }<sup>(٧)</sup> .
- { لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ }<sup>(٨)</sup> .
- { وَمَنْ عَصَانِي }<sup>(٩)</sup> .
- { وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى }<sup>(١٠)</sup> .
- { فَعَصَى فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ }<sup>(١١)</sup> .
- { وَإِنَّهُمْ عَصَوْنِي }<sup>(١٢)</sup> .
- { وَمَنْ يَعِصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ }<sup>(١٣)</sup> .
- { وَلَا يَعْصِيكَ فِي مَعْرُوفٍ }<sup>(١٤)</sup> .

(١) سورة طه . الآية (٩٣) .

(٢) سورة هود . الآية (٦٣) .

(٣) سورة الشعراء . الآية (٢١٦) .

(٤) سورة يونس . الآية (١٥) . الأنعام (١٥) سورة الزمر . الآية (١٣) .

(٥) سورة النساء . الآية (٤٢) .

(٦) سورة الحاقة . الآية (١٠) .

(٧) سورة هود . الآية (٥٩) .

(٨) سورة التحريم . الآية (٦) .

(٩) سورة إبراهيم . الآية (٣٦) .

(١٠) سورة طه . الآية (١٢١) .

(١١) سورة المزمل . الآية (١٦) .

(١٢) سورة نوح . الآية (٢١) .

(١٣) سورة الجن . الآية (٢٣) . سورة الأحزاب . الآية (٣٦) . سورة النساء . الآية (٤) .

(١٤) سورة الممتحنة . الآية (١٢) .

بينما جاءت لام التفرغ في قوله تعالى :

﴿ قَالَ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا ﴾ (٦٩) (المعص).

فلم يقل ( ولا أعصيك في أمر ) . واستعمل لام التفرغ ليفيد تفرغه لطاعته .

والقائل هو موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ لعمه الخضر ، وقد استخدم ( سَتَجِدُنِي ) السين للمستقبل القريب . ووضع الياء لأنه يتحدث عن نفسه في المستقبل . واستخدم الفعل ( وجد ) لاستحضاره قبل الكلام ، أي هو يملك الصبر ، لأن الفعل وجد يفيد وجود الشيء قبل الحدث . ولو قال ( ستراني صابراً ) لكان سيستحضر الصبر وقتها ، لكن موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ يعلن في ثقة عن وجود الصبر معه ، انطلاقاً من وقوفه على قوته الذاتية .

ثم وضع وضع الاستثناء (إِنْ شَاءَ اللَّهُ) في عبارة الصبر ، فثبت الصبر . فقد كان موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ مهيباً للمواصلة . لكن موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ كان يعلم : وما صبرك إلا بالله ، فاستعان بالله عليه ، بينما رأى أن الطاعة في مقدوره فوطن نفسه عليها ، وهكذا ترك أمراً لله ، وأمراً لنفسه ، ولأننا في موضع تعلم ، فلم يخذله الله فيما اعتمد فيه عليه وهو الأصعب ، بينما خذلته نفسه فلم تسعفه بالسكوت والطاعة ، وقيل إنه ولو وضعها في نهاية الجملتين لفعل الأمرين .

والصبر هو الحبس ، وُسْمِي الكَفِيل بالصَّبِير ؛ لِأَنَّهُ يَصْبِرُ عَلَى الْغُرْمِ وَالْمَصْبُورَةَ الْمَحْبُوسَةَ عَلَى الْمَوْتِ<sup>(١)</sup> ، أما الفرق بين اصبروا وصابروا : فاصبروا أي احبسوا أنفسكم على العبادة ، وصابروا أي جاهدوا أهواءكم . وسمي الله بالصبور لأنه لا يعاجل العصاة بالانتقام ، ولم يقل ( سأصبر إن شاء الله ) لأن الفعل مؤقت ، وقد لا يحدث ، أما ثبوت الوصف فهو أبلغ في تحقق الصبر . لأنها صفة فيه . وليست حدثاً . وقد وضع ألف ( صَابِرًا ) لأن جوهر كمال الصبر واحد ، لا يتفاوت من إنسان

(١) ابن فارلاس ، مقاييس اللغة ، مادة (صبر) .

إلى آخر، لكن عند الجمع يحجب الرسم القرآني ألف اسم الفاعل : (الْصَّابِرِينَ) لأن درجات الصبر متفاوتة وغير متساوية من واحد إلى آخر .

ولم يقل ( ستجدني إن شاء الله من الصابرين ) كما فعلها إسماعيل عَلَيْهِ السَّلَامُ، وذلك لأن تعبير من الصابرين : أي سأكون أنا بيت الصبر ، فأصبر الصبر كما يجب أن يكون حتى لأكون ممن يضرب به المثل في ذلك ، ولعل إسماعيل وهو مقدم على الذبح كان يدري أن أباه في المحنة نفسها ، فأراد بالمبالغة في الوعد بالصبر المثالي أن يبيث الطمأنينة في قلب أبيه ، وقد وصف الله إسماعيل بأنه حليم . بينما لم يقل موسى عن نفسه ذلك ، لأنه يعلم عن نفسه حدثها .

ولعلنا في موقف آخر سنجد موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ يسمع تلك الصيغة وذلك لما عرض عليه شيخ مدين تزويجه بإحدى ابنتيه إذ قال له :

• ﴿ فَإِنْ أَتَمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِنْدِكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِنْ

شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٢٧﴾ (القصص) .

فاستعمل ( من الصالحين ) ولم يقل صالحاً ، فهو يعد موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ بأن يكون له في حسن الصحبة والوفاء في الصورة المثالية . أي ستجدني ممن اشتهروا بالصلاح .

ثم قال له ( وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا ) أي أنه وعده بالصبر والطاعة . واستعمل في الصبر الصيغة الاسمية ( صَابِرًا ) لأنه يتحدث عن شيمة يعرفها في نفسه فهي ثابتة في اعتقاده ، أما الأوامر فهي متجددة من العبد الصالح ، لهذا استعمل المضارع ليواكب عدم عصيانه صدرورها . ولم يقل ( لن أعصي ) لأن النفي الآني يعني أنه من تلك اللحظة لا يعصي له أمراً ، بخلاف النفي المستقبلي فهو لا يجمع نفي اللحظة ، ولا يحدد متى يبدأ النفي المستقبلي هذا . وقد تسأل لماذا لم يقل سأطيع أمرك ؟ لأن نفي العصيان يعني دوام الطاعة ، أما إثبات الطاعة فلا يعنى حدوث

المعصية مرة في خلال مشوار الطاعة . ولذلك عندما طلب الله عزَّ وَجَلَّ من النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بمبايعة النساء أخبره عن نفي العصيان وليس إثبات الطاعة : ﴿ وَلَا يَعْصِيكَ فِي مَعْرُوفٍ ﴾ (١٣) (المتحنة) .

\* والعاصي كما يقول ابن فارس : الفَصِيلُ إِذَا عَصَى أُمَّهُ فِي اتِّبَاعِهَا . والمعصية هي مخالفة الأمر أو النهي . وهي مقابل الطاعة ، وقد وصف الشيطان بالعصيان : { إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا } (١) ، وكذلك فرعون : { فَعَصَى فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ } (٢) ، { فَكَذَّبَ وَعَصَى } (٣) ، { ءَأَكْتَنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ } (٤) ، وكذلك اليهود : { قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا } (٥) .

\* والمعصية تشمل ( الإثم والعدوان ) بدليل أنها جاءت إجمالاً لهما في سورة المجادلة :

● ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا تَنَجَّيْتُمْ فَلَا تَنَجَّجُوا بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَةِ الرَّسُولِ وَتَنَجَّجُوا بِالْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَآتَقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾ (٩) (المجادلة) .

فهو هنا لا ينهى الذين آمنوا عن معصية الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، لأنهم لو كانوا يتناجون سرّاً بمعصية الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ما استحقوا إثبات صفة الإيمان ، لكنه يقول لهما : إن الإثم والعدوان مثل معصية الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فكما معصية الرسول خط أحمر لكم كذلك اجعلوا الإثم والعدوان كذلك ، لأنكم إن تفعلوا الإثم والعدوان تجسدون معصية الرسول . وفي المقابل أمرهما بالتناجي باثنين في مقابل اثنين : وتناجوا بالبر والتقوى ، وهما معاً يجسدان طاعة الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ . والمعنى : لا تتناجوا بالإثم والعدوان لأنهما تجسيد لمعصية الرسول ، وتناجوا بمقابلهما ( البر والتقوى )

(١) سورة مريم . الآية (٤٤) .

(٢) سورة المزمل . الآية (١٦) .

(٣) سورة النازعات . الآية (٢١) .

(٤) سورة يونس . الآية (٩١) .

(٥) سورة البقرة . الآية (٩٣) .

لأنهما تجسيد لطاعة الرسول .

ثم وضع اللام ، فلم يقل ( ولا أعصي أمرك ) برغم أن الفعل متعدٍ بذاته ؟  
وذلك لأن اللام هنا هي لام التفرغ التي تعطي معنى الخلو التام من الفعل ، أي  
سيكون شغلي الشاغل أن أتلافى ما يعصي أمرك .

## ٣. فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسَهُ :

الفعل (طَوَّعَ) متعدٍ بالتضعيف : ومع ذلك وضع لام التفرغ :

• ﴿ فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسَهُ قَتَلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخٰسِرِينَ ﴾ (المائدة) .

فلم يقل ( فطوعته نفسه قتل أخيه ) وهذا بيان لمحاضرة نفسه له ، فلم تترك له فرصة للفتاك منها . والكلام عن الابن الأكبر لآدم ، وهو أبو شياطين الإنس ، فهو صاحب الأوليات في المعصية ، فهو أول عاص للنبي ولله مباشرة ، وسوف يذكر دوماً بإبليس أبو شياطين الجن . فهو أيضاً طَوَّعَتْهُ نفسه على أن يعصي الله ، ولورأيت : يعلم أن الله سيأمره بالسجود لآدم فيدخر العصيان ، ويقرر أنه لن يفعل حتى قبل السجود ، برغم أنه كان ينتوي أن يسابقهم في السجود لكن لما رأى آدم واحتقره عدل عن موقفه وهذا ما سيسأله الله عنه : ما منعك أن تسجد ، أي قد كنت تنتوي السجود ، فما الذي جد وجعلك تعدل عما انتويته .

ثم صدر الأمر الإلهي ، واستحضر الهيبة وأن تسمع صوت الله يأمرك ، فسجد الملائكة ، وأبى هو أن يكون من الساجدين ، وهنا سيسأله الله ثانية عن الموقف الجديد : كنت قد عزمت ألا تسجد ، لكن لما سمعت صوتي ، ما الذي منعك عن العدول عن موقفك الجديد بعدم السجود .

وكانت إجابة إبليس ليس الاعتذار عن أي الموقفين ، لكنها كانت الإصرار على الموقف بحجة أنه مخلوق من مادة أفضل مما خلق منها آدم ، ولا أدري أين عقله؟ فستان بين مادة الخلق وما صار منها من مخلوق ، أي أن التمايز فيما صار من المادة ، وليس من المادة ذاتها .

وسنرى الموقف نفسه من قابيل ، إذ سيأمره نبي الله في وقته : أبوه آدم بأن الحلال أن يتزوج التي لم تأت في نوبته ، فلا يقبل ، وبذلك كان أول مكذب لنبي من أنبياء الله ، وهنا يحيله آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ إلى ربه ، أي إن لم تصدقني ، فاسمع منه مباشرة ، قدّم أنت وأخوك قرباناً ، فما يقبله الله من القربانين يعني أن هذا قرار الله ، فتقبل الله قربان أخيه ، ولا أظن أنه قبله لأنه كان قد قدم الأفضل ، لا ، فلن الله لحومها ولا دمارها ، ولكن يناله التقوى من خلقه ، إنما هو الحلال : والحلال أن تحدث المخالفة فيتزوج كل ذكر الأنثى التي جاءت في غير نوبته ، للمباعدة في الأخوة ، وجاء قرار الله : لا يجوز لك زواج التي جاءت في نوبتك ، وهي من حق أخيك ، ومرة أخرى يضرب العاصي باختيار الله عرض الحائط ، ويصر على موقفه الذي علم أنه ليس الحلال من النبي ، ومن الله مباشرة .

إنه يمشي على خط موازٍ مع إبليس ، إنه العصيان لله مباشرة ، والإصرار على المعصية ، ولا محاولة للتوبة منها والاعتذار لرب العزة ، إنما هو الإباء أي الرفض حتى النهاية .

ولما سئل عن سر عصيانه ، قال إجابة مطابقة لإجابة إبليس : أنا خير منه ، أنا ابن الجنة .

وهو في عصيانه ماضٍ قدماً إلى الزنا ، لأنه لو نجح في أن يتزوج بمن يصر عليها ، فتلك زيجة لا يرضاها الله ، وهي الزنا بعينه ، وحتى لو حال تدخل إلهي بينه وبين ذلك ، فهو لا ينجو من تهمة الزنا ، لأنه كان ساعياً إليها بإصرار وقوة فهو زانٍ وإن لم يتم الفعل .

فجمع بين الرذائل كلها ، ما بين عصيان النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وعصيان الله ، وحسد أخيه ، وتكرار العنصرية الإبليسية ذاتها ، وطبعاً قبل كل هذا الكفر

بالله ، ولن يكتفي بذلك فسيتوج جرائمه بأول جريمة قتل ، وبأول دماء تسفك على الأرض ، ليكون عليه إثم كل دماء تسفك بعد ذلك بما سنَّه من سنة قبيحة ، فعليه وزرها ووزر من عمل بها يوم القيامة . وقال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : «لا تقتل نفس ظلما إلا كان على ابن آدم الأول كفل من دمها» .

ولأجل كل هذا توصل الدكتور العلامة رحمه الله فاروق الدسوقي الفائز بجائزة فيصل الإسلامية أن قابيل هذا إن هو إلا الدجال نفسه ، وأنه كبير شياطين الإنس كما إبليس كبير شياطين الجن . وأنهما معا الطاغوت .

ولأن إبليس لم يكن هناك شيطان يحركه ، وكان شيطانه نفسه ، كذلك كانت نفس قابيل أو الدجال كما يقول د . فاروق الدسوقي أقوى من إبليس نفسه .

وجعل النفس الفاعل يفيد أنها من سهلت له ويسرت له فعلته ، فقتله ، ولم يقاومه أخوه . وقال الرازي : إن القتل العمد من أعظم الكبائر ، لذلك فهذا الاعتقاد يصرف عنه ، ويتحول فعل القتل كالشيء العاصي المتمرد عليه الذي لا يطيعه البتة ، فإذا أوردت النفس أنواع وساوسها صار هذا الفعل سهلاً عليه ، فكأن النفس جعلت بوساوسها العجيبة هذا الفعل كالمطيع له بعد أن كان كالعاصي المتمرد عليه . فهذا معنى قوله ( طوعت نفسه ) .

وجاءت لام التفرغ لتكشف أن النفس روضت هذا الفعل حتى لم يكن له مقاومة تذكر ، أي أنها أفرغت التطويع من غريمه .

## ٤. نَزَدَ لَهُ :

الفاعل (زاد) متعدٍ بذاته ، فيمكن أن تضع معه ضمير المفعولية ، فتقول : زدته ، فوجود اللام يحيلها إلى اللام التي نقصدها وهي لام التفرغ :

- { وَزِدْنَهُمْ هُدًى }<sup>(١)</sup> .
- { وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا }<sup>(٢)</sup> .
- { زِدْنَهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ }<sup>(٣)</sup> .
- { فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَاءِي إِلَّا فِرَارًا }<sup>(٤)</sup> .
- { وَلَا نَزِدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا نَارًا }<sup>(٥)</sup> .
- { مَنْ لَمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوْلَدُهُ إِلَّا خَسَارًا }<sup>(٦)</sup> .
- { وَلَا نَزِدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلَالًا }<sup>(٧)</sup> .
- { زِدْنَهُمْ سَعِيرًا }<sup>(٨)</sup> .
- { فَرِدُّهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِي النَّارِ }<sup>(٩)</sup> .
- { زِدْنَهُمْ سَعِيرًا }<sup>(١٠)</sup> .
- { لِيَزِدَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ }<sup>(١١)</sup> .
- { وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ }<sup>(١٢)</sup> .
- { وَنَزِدَادُ كَيْلٍ بَعِيرٍ }<sup>(١٣)</sup> .
- { وَأَزِدَادُوا تِسْعًا }<sup>(١٤)</sup> .

(١) سورة الكهف . الآية (١٣) .

(٢) سورة طه . الآية (١١٤) .

(٣) سورة النحل . الآية (٨٨) .

(٤) سورة نوح . الآية (٦) .

(٥) سورة نوح . الآية (٢٨) .

(٦) سورة نوح . الآية (٢١) .

(٧) سورة نوح . الآية (٢٤) .

(٨) سورة الإسراء . الآية (٩٧) .

(٩) سورة ص . الآية (٩١) .

(١٠) سورة الإسراء . الآية (٩٧) .

(١١) سورة الفتح . الآية (٤) .

(١٢) سورة هود . الآية (٥٢) .

(١٣) سورة يوسف . الآية (٦٥) .

(١٤) سورة الكهف . الآية (٢٥) .

ووضع لام التفرغ في آيتين :

• ﴿مَنْ كَانَتْ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزَدْلَهُ، فِي حَرْثِهِ﴾ (الشورى) .

• ﴿وَمَنْ يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَزَدْلَهُ، فِيهَا حُسْنًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾ (الشورى) .

فلم يقل ( نزده ) وذلك لأنه أفرغ له كل الزيادة ، فلا مزيد ، من أراد حرث الآخرة فجزاؤه أن يعطى رغبته بحيث لا مزيد عليها ، وكذلك من يقترب حسنة يزد له فيها بحيث لا يكون هناك مزيد عليها ، ليتحقق شكر الله لها .

## ٥. فَيَكِيدُوا لَكَ :

الكيد معالجة شيء بشدة، ويكيد بنفسه أي يعالجها لتخرج، والكيد أن يُخرج الزُّنْدُ النَّارَ ببطءٍ وشدة<sup>(١)</sup>، وهو يتسم بالخفاء ويطلق على كل تدبير خفي يهدف لإلحاق الإذى بشخص لا يدري به، قال أبو تمام:

وَضَعِيفَةٌ إِذَا أَصَابَتْ فُرْصَةً      قَتَلَتْ كَذَلِكَ قُدْرَةَ الضُّعْفَاءِ

والكيد كل احتيال يريد سوءاً في خفاء، وفي حديث عمرو بن العاص ما قولك في عُقُولِ كَادِهَا خَالِقِهَا؟ وفي رواية تلك عقولُ كادها بارئُها أي أرادها بسوء، وسميت الحربُ كيداً لأن الإنسان يكيد بنفسه أي يجود بها.

فعل الكيد متعد بذاته، وقد جاء في القرآن الكريم مسنداً لياء المتكلم المفعولية أكثر من مرة: يَقُولُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: {فَيَكِيدُونِي} <sup>(٢)</sup>، {ثُمَّ كِيدُونَ} <sup>(٣)</sup>، {فَيَكِيدُونِي جَمِيعًا} <sup>(٤)</sup>، وضع لام التفرغ في سورة يوسف في قوله تَعَالَى:

• ﴿قَالَ يَبْنَئُ لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا﴾ (يوسف).

الأب ينهي ابنه عن قص رؤياه على أخوته، ويعلل ذلك بأنهم إن عرفوها سيكيدونه، لكنه لم يقل فيكيدوك كيداً، بل قال (فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا) : على الرغم من أن الفعل يكيد متعد بذاته، لا يحتاج لحرف الجر اللام، وجاء في القرآن الكريم بدون لام، على لسان إبراهيم عليه السلام: {وَتَأْتِيهِمْ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَانَكُمْ} <sup>(٥)</sup>، فلم يستعمل اللام، فلم يقل لأكيدن لكم أصنامكم،

(١) ابن فارس. المفاهيس. مادة (كيد)

(٢) سورة المراسلات. الآية (٣٩).

(٣) سورة الأعراف. الآية (١٩٥).

(٤) سورة هود. الآية (٥٥).

(٥) سورة الأنبياء. الآية (٥٧).

أما تعليل يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ ، فقد أفسح لوجود اللام : (فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا) ولم يقل : ( فيكيدوك كيداً ) فهي صحيحة لغوياً لأن الفعل كما قلنا متعد بذاته ، بل زاد اللام وهي من الأحرف الوظيفية في القرآن التي وجودها دون سبب نحوي يفيد دلالة زائدة هي التفرغ، أي يتفرغون للكيد لك. تفرغاً تاماً كأن تلك أبحاث رسالتهم في الحياة للكيد لك. فأعطت اللام الزائدة نحوياً هنا معنى وظيفياً لا يمكن الاستغناء عنه هو معنى التفرغ: ويكون المعنى : يا بني ، لا تقصص رؤياك على إخوتك، لأنك إن فعلت ، تفرغوا في الكيد لك ، سيكون شغلهم الشاغل الكيد لك .

وهذا المعنى لا يعطيه لك ( فيكيدوك ) التي تقيد مجرد الكيد ، ولا يفيد ديمومته وتفرغ فاعليه له ، وشتان بين أن يكيد أحد لك بين الحين والآخر ، وبين أن يتخذ تدمير حياتك هدفاً كما نرى في الموتورين الذين يتركون كل حياتهم من أجل الانتقام ، فتكون حياتهم كلها متمحورة في التخطيط للنيل من عدوهم ، ولا ينشغلون عن ذلك لحظة. وهكذا تقف على دلالة لام التفرغ :

فيكيدوك : كيد غير متواصل ( محدود ) .

فيكيدوا لك كيد متواصل لا يصرفهم عنهم صارف ، الكيد لك شغلهم الشاغل، وهدفهم الذي لا يفترون عنه.

وانظر إلى قوله تَعَالَى :

• ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا﴾ (١٥) (الطارق) .

أي يكيدون ما استطاعوا، يدبرون احتيالاتهم ضد رسول الله صلى الله عليه وسلم، فيقلب الله كيدهم عليهم، فكل ضرر أرادوه به أصابهم، فكأنهم يسددون الضربة لأنفسهم. فكيدهم مردود عليهم في نحرهم.

ولم يضع (لام التفرغ) لأن الحرب مع الله، فلا يمكنهم التفرغ لمحاربة الله، بل هم يحاربون الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ويظنون أنهم بذلك لا يحاربون الله.

## ٦. فَلَنْ تَسْتَطِيعَ لَهُ :

الفاعل يستطيع متعد بذاته ، فهو يقبل هاء المفعولية ، تقول : هذا العمل أستطيعه وقد جاء في القرآن الكريم متعدياً بذاته في أكثر من موضع :

- { لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ }<sup>(٢)</sup>
- { لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ }<sup>(١)</sup>
- { فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا }<sup>(٤)</sup>
- { فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً }<sup>(٣)</sup>
- { لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً }<sup>(٦)</sup>
- { فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا }<sup>(٥)</sup>
- { لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ }<sup>(٨)</sup>
- { فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا }<sup>(٧)</sup>
- { لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنْفُسِهِمْ }<sup>(١٠)</sup>
- { وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا }<sup>(٩)</sup>
- { فَمَا اسْتَطَعُوا مُضِيًّا }<sup>(١٢)</sup>
- { لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا }<sup>(١١)</sup>
- { مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ }<sup>(١٣)</sup>

(١) سورة يس . الآية ( ٧٥ ) .

(٢) سورة الأعراف . الآيات ( ١٩٧ ) .

(٣) سورة يس . الآية ( ٥٠ ) .

(٤) سورة الفرقان . الآية ( ١٩ ) .

(٥) سورة البقرة . الآية ( ٢٧٣ ) . سورة الإسراء . الآية ( ٤٨ ) .

(٦) سورة النساء . الآية ( ٩٨ ) .

(٧) سورة الأنبياء . الآية ( ٤٠ ) .

(٨) سورة الفرقان . الآية ( ٩ ) . سورة الإسراء . الآية ( ٤٨ ) .

(٩) سورة الكهف . الآية ( ١٠١ ) .

(١٠) سورة الأنبياء . الآية ( ٤٣ ) .

(١١) سورة الكهف . الآيات ( ٦٧ ، ٧٢ ، ٧٥ ) .

(١٢) سورة يس . الآيات ( ٦٧ ) .

(١٣) سورة هود . الآيات ( ٢٠ ) .

لكن برغم كثرة المواضع التي جاء الفعل (يستطيع) فيها متعدياً بذاته ، إلا أنه هناك غير موضع جاءت لام التفرغ مع الفعل يستطيع ليكشف العجز برغم التفرغ للفعل .

أما الاستعمال الأول الذي جاءت فيه لام التفرغ مع الفعل يستطيع :

• ﴿ أَوْ يُصْبِحَ مَأْوَاهَا غَوْرًا فَلَنْ تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلْبًا ﴾ (٤١) (الكهف) .

كما ترى ، الفعل متعد بذاته ، إذ يمكن القول : ( فلن تستطيع طلبه ) ، لكنه لم يقل ذلك ، بل زاد لام التفرغ ، أي ستعجز عن طلبه وإن تفرغت لذلك طول حياتك .

إن القائل هو المؤمن يقول لصاحب الجنة التي لن تكون له جنة سواها ، فهي جنته الوحيدة ، نالها في الدنيا وسكن سواء الجحيم في الآخرة ، ولهذا برغم أن القرآن صرح أن له جنتين ، إلا أنه أفردهما لما قال : ( وَدَخَلَ جَنَّتَهُ ) فدمج الجنتين وجعلهما واحدة ليس إلا حرمانه إلا منها ، فليس له إلا تلك الجنة الدنيوية وإن كانت اثنتين أو ثلاث .

- إن كل خير في جنتك بمشيئة الله ، إن شاء ضاعفها ، وإن شاء خربها ، فكان يجب عليه أن يقول : ( مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ ) لتدوم عليك ، ثم يواصل المؤمن كلامه: إن كان عطاء الله لك يجعلك تتعالى علي ، يقول الزمخشري : ( إن ترني أفقر منك فأنا أتوقع من صنع الله أن يقلب ما بى وما بك من الفقر والغنى ، فيرزقنى لإيماني جنة خيراً من جنتك ويسلبك لكفرك نعمته ويخرب بستانك )<sup>(١)</sup> .

فعبّر عن الخير الذي ينتظره بقوله ( فَعَسَىٰ رَبِّي أَن يُؤْتِيَنِي خَيْرًا مِّنْ جَنَّتِكَ ) .  
وعبر عن الفقر الذي أورده إليه الكفر بقوله :

(١) الزمخشري . الكشاف . ج ٢ ، ص ٧٢٣ .

- وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ السَّمَاءِ فَتُصْبِحُ صَعِيدًا زَلَقًا .
- أَوْ يُصْبِحَ مَأْوَاهَا غَوْرًا فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَبًا .

وهذا اليقين من المؤمن ، وحسن ظنه في ربه ، قد تحقق تماماً . فأرسل الله عليها هلاكاً فأصبحت خاوية على عروشها ، وبذلك ضاع عليها المال والمجهود الذي بذله في تعمیرها ، ونضب ماؤها فلا يستطيع معه أن يبدأ من جديد .  
ولذلك استعان بتاء تستطيع .. أي ولو بذلت أقصى جهدك ، وكذلك استعان بلام التفرغ : أي وإن تفرغت لذلك .

أما الاستعمال الثاني الذي جاءت فيه لام التفرغ مع الفعل يستطيع :

- ﴿فَمَا اسْطَاعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا﴾ (٤٧) (التكوير) .

بعد أن أتم ذو القرنين ردمه الذي يحجز يأجوج ومأجوج عن الناس ، يعبر القرآن عن عظمة الردم ، من خلال عجز يأجوج ومأجوج عبوره بأي طريقة ، وهم كان أمامهم إحدى طريقتين :

طريقة رأسية أقل صعوبة : من خلال التسلق من فوقه .

طريقة أفقية أشد صعوبة : من خلال ثقب الردم والنفوذ من خلاله .

وقد فشلوا في الأمرين معاً ، فلا استطاعوا أن يفعلوا العمل السهل بالتسلق من فوقه ، وبالطبع لم يستطيعوا أن يفعلوا الصعوبة بالنفوذ من خلاله ، لأنه جعله ملتحماً بالجبل كأنه قطعة من الجبل .

ولذلك ستجد القرآن يستخدم تاء المعاناة في الصعب ، أي برغم معاناتهم في لقد فشل أهل يأجوج ومأجوج في العملين الأسهل والأصعب ، فلا هم تمكنوا من

العمل السهل وهو الارتقاء من فوقه ، ولا هم قدروا على العمل الصعب وهو : النفاذ من خلاله .

وهذا هو الفارق بين التعبيرين :

• وما استطاعوا أن يظهروه : حذف تاء المعاناة ليكشف أن هذا العمل الأسهل . واستعمل المصدر المنسبك التطبيقي ليبين أنه لا يتحدث عن مفهوم التسلق ، ولكن يتحدث عن تطبيقه وما صدقاته ، مما يفيد أن هناك محاولات كثيرة منهم لتسلقه لأن هذا كما قلنا هو العمل الأسهل .

• وما استطاعوا له نقباً : أثبت تاء المعاناة ، ليكشف أن هذا أصعب الأمرين وإن كانوا قد فشلوا في الأسهل ، فلن ينجحوا في الأصعب . واستعمل المصدر الصريح (نقبا) فلم يقل ( أن ينقبوه ) للدلالة على أنهم وإن حاولوا النقب فلم يتحقق لهم ذلك وكان محاولاتهم وعدمها سواء ، أو كأنهم لم تكن ، لهذا عبّر عنها بالمصدر الصريح الذي يفيد المفهوم لا التطبيق

وفي رأينا أن القرآن أشار إلى أنهم إن كانوا قد فشلوا في الماضي ، إلا أنه صرح بأنهم سينجحون في المستقبل كما قال ذو القرنين :

• { فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا }<sup>(١)</sup>

ولذلك نؤكد أن طريقة خروجهم وقتما خرجوا لن تكون إلا بالطريقة الأسهل وهي أن يظهروا الردم . أما وقتها وبعدها أي قبل الموعد ( وعد ربي ) فستكون كل محاولاتهم فاشلة .

وقد عبّر القرآن عن فشل محاولاتهم سواء كانت بالطريقة السهلة ( الخالية من تاء المعاناة ) أو الطريقة الصعبة ( المثبت فيها تاء المعاناة ) فهم قد عجزوا

(١) سورة الكهف . الآيات ( ٩٨ ) .

عن اجتياز الردم الذي أقامه ذو القرنين سواء بالطريقة السهلة أو بالصعبة ، لكن في الوقت المحدد لا طريقة لهم إلا بالسهلة .

لكنه كان يمكن أن يعبر عن عجزهم عن نقبه بدون زيادة اللام ، فيقول : وما استطاعوا نقبه ؛ لأن الفعل متعد بذاته فهو يقبل هاء المفعولية ، تقول : هذا العمل أستطيعه ، أي يمكن أن نقول ( وما استطاعوا نقبه ) دون حاجة إلى اللام وقد جاء كثيراً في القرآن بدون اللام منها كما رأينا في أول المبحث مثل : { مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ } <sup>(١)</sup> ، { فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا } <sup>(٢)</sup> ، { لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ } <sup>(٣)</sup> ، ( فَمَا اسْتَطَعُوا مُضِيًّا ) <sup>(٤)</sup> ، فلماذا زاد اللام ؟

كما قلنا اللام الزائدة تضي على المعنى معنى زائداً هو التفرغ ، أي أن صانعه تفرغ له ، حتى كان هذا العمل هو شغله الشاغل الذي لا يشغله عنه شاغل .

وإن كانوا فرقنا آنفاً بين الاستعمالين من حيث التاء ، فقلنا إن وجودها إشارة إلى الصعب المستعصي الذي لن يتحقق الخروج من خلاله ، وعدمها إشارة إلى أسهل الطريقتين ، والطريق المتاح عند الخروج ، فلعلنا نحتاج إلى التفرقة بين لام التفرغ وجوداً وعدمًا : بمعنى أن قوله تَعَالَى : ( وَمَا اسْتَطَعُوا لَهُ نَقْبًا ) التي في نظرنا تفيد أن يأجوج ومأجوج تفرغوا تماماً لنقب الردم ، ومع هذا التفرغ الكامل عجزوا أن يفعلوه . والآتي هو الفرق بين الاستعمالين عند حذف اللام وعند إثباتها ؟

• ما استطاعوا نقبه : عجزوا عن نقبه ، وربما لم يحاولوا ، وربما حاولوا قليلاً مما يفيد أنهم ربما لو أعطوه وقتاً أكثر ومحاولات أكثر لربما نجحوا .

(١) سورة هود . الآية (٢٠) .

(٢) سورة الأنبياء . الآية (٤٠) .

(٣) سورة الأعراف . الآية (١٩٧) .

(٤) سورة يس . الآية (٦٧) وكذلك في قوله تَعَالَى في سورة آل عمران : ( مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ) .

- وما استطاعوا له نقباً : أي كان شغلهم الشاغل هو محاولة نقبه، وكلما فشلوا في محاولة اتجهوا لأخرى. لكنهم عجزوا برغم تفرغهم الكامل لذلك .

أما الاستعمال الثالث الذي جاءت فيه لام التفرغ مع الفعل يستطيع :

- ﴿وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَا أَنْفُسُهُمْ يَنْصُرُونَ﴾ (الأعراف: ١١٢)

رب العزة يتحدث عن الآلهة التي عبدوزها إشراكاً وهو يقول عن تلك الآلهة المزعومة في الآية السابقة :

- ﴿أَشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ (الأعراف: ١١١)

فالله عز وجل يتحدث عما أشركوهم في عبادته بأنهم لا يخلقون شيئاً ، وما هم إلا مخلوقات مثلهم .

وأبجدية الخلق أن يختلف عن مخلوقه ، فكل صفات الله عز وجل تتمحور في الاختلاف البين عن مخلوقاته : وانظر :

- \* الواحد : أي ليس له ثاني ، وكل مخلوقاته لها ثاني .
- \* الأحد : لا أجزاء له ، وكل مخلوقاته لها أجزاء .
- \* الحي : الذي لا يموت ، وكل مخلوقاته تموت .
- \* القيوم : لا تأخذه سنة ولا نوم ، وكل مخلوقاته تنام .
- \* الصمد : لم يلد ولم يولد ، وكل مخلوقاته ذرء تلد وتولد .
- \* القادر : طلاقة القدرة ، يقدر على الشيء وعكسه ، يميت ويحيى من يميته ، وكل مخلوقاته قدرتها محدودة .

\* السلام : أي سلم من الفناء والتغير ، وكل مخلوقاته عرضة للفناء والتغير .

\* الغني : غني في ذاته ، وكل مخلوقاته تقتقر إلى غيرها .

فكان من الغريب أن يكون أولى صفات الشيء الذي اتخذه إلهها أن يكونوا مشاركاً لهم في الصفة ، فهو مخلوق مثلهم ، ويعجز أن يخلق شيئاً ، فكيف ساغ لهم أن يعبدوهم ؟

ولهذا وصف الله عزَّ وَجَلَّ عجز تلك الآلهة ( وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا ) لأنهم أصلاً لا يمكنهم نصر أنفسهم ، أي أن الناس الذين عبدهم أكثر قدرة منهم . وقد ضع لام التفرغ في قوله ( وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا ) فلم يقل : ولا يستطيع نصرهم ، وبذلك نرى أنه وضع تاء المعاناة أي يعجزون وإن بذلوا كل جهدهم ، ووضع لام التفرغ للدلالة على أنهم عاجزون وإن تفرغوا لفعل ذلك . وهذا العجز تام لا يشوبه شائبة ، فليس فيه أي نسبة من معكوسه أي القدرة .

فهم عاجزون عن نصرهم مع تفرغهم لذلك ، ولعل المغايرة الآتية في الاستعمال الواحد بين إثبات اللام وعدم استعمالها يكشف وظيفة التفرغ في هذه اللام :

● ﴿ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ ﴾ (الأعراف) ١١٢

● ﴿ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ ﴾ (الأعراف) ١١٧

① { لَا يَسْتَطِيعُونَ }  نَصْرَكُمْ ﴿٤﴾ [الأعراف]

② { وَلَا يَسْتَطِيعُونَ }  لَهُمْ نَصْرًا ﴿١١٢﴾ [الأعراف]

الصورة الأولى ① : { لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ }<sup>(١)</sup> : الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هو

(١) سورة الأعراف : { وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ

القائل ، فقبلها أمر الله عَزَّ وَجَلَّ له بأن يقول ذلك للكافرين: { قُلْ أَدْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ } (١١٥) إِنَّ وَلِيِّ اللَّهِ الَّذِي نَزَلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ (١١٦) وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ } (١) لا يتحدث هنا عن عدم استحقاقها العبادة ، ليضع لام التفرغ ، لكنه يراعي ارجاء الكافرين النصر منها ، فيكتفي بأن ينفي ذلك ، ترجون نصرهم ، لن يحدث .

**الصورة الثانية 2:** { وَلَا يَسْتَطِيعُونَ هُمْ نَصْرًا } (٢) : الله عَزَّ وَجَلَّ هو المتكلم ، فيكشف عجز الآلهة في نصر الكافرين وإن تفرغوا لذلك ، فذكر درجة عجزهم لأنهم في مواجهته هو نفسه ، وهو المتكلم ، وهكذا نرى أن سر المغايرة اختلاف المتحدث ، فإن كان الله فيجب أن يظهر درجة العجز وأنهم عاجزون وإن تفرغوا لذلك ، وإن تجمعوا لذلك ، حتى لا يقال : ربما لم ينصروهم لأنهم كانوا منشغلين بغيرهم . وبذلك كشف عن عدم استحقاقها للعبادة ، فزاد اللام : عاجزون وإن تفرغوا فكيف تعبدونهم ؟

والخلاصة :

{ فَلَنْ تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلْبًا } (٣) أي لن تستطيع طلب الماء وإن تفرغت لذلك .  
 { وَمَا اسْتَطَعُوا لَهُ نَقْبًا } (٤) أي أن يأجوج ومأجوج فشلت نقب الردم الذي صنعه ذو القرنين برغم تفرغهم لذلك .  
 { وَلَا يَسْتَطِيعُونَ هُمْ نَصْرًا } (٥) : أي يعجزون عن نصرهم وإن تفرغوا لذلك .

(١) سورة الأعراف :

(٢) سورة الأعراف: { وَلَا يَسْتَطِيعُونَ هُمْ نَصْرًا وَلَا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ } (١١٦)

(٣) سورة الكهف . الآيات ( ٩٧ ) .

(٤) سورة الكهف . الآيات ( ٩٧ ) .

(٥) سورة الأعراف: { وَلَا يَسْتَطِيعُونَ هُمْ نَصْرًا وَلَا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ } (١١٦)

## ٧. وَنَمُدُّ لَهُ :

الفاعل (مد) متعد بذاته ، إذ تستطيع أن تضع فيه هاء المفعولية ، فتقول نمده ، وقد ورد في القرآن متعدياً بذاته في استعمالات كثيرة : { وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا }<sup>(١)</sup> ، { وَيَمْدُدُّكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ }<sup>(٢)</sup> ، { وَالْبَحْرَ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةَ أَبْحُرٍ }<sup>(٣)</sup> ، { أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ آفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُنَزَّلِينَ }<sup>(٤)</sup> ، { بَلَّغْ إِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فَوْرِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ }<sup>(٥)</sup> ، { وَيَمْدُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ }<sup>(٦)</sup> ، { وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي الْغَيِّ }<sup>(٧)</sup> ، { وَأَمْدَدْنَاهُمْ بِفَلَكَهٖ وَلَحْمٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ }<sup>(٨)</sup> ، { وَأَمْدَدْنَاكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ }<sup>(٩)</sup> ، { كَلَّا نُمَدُّ هَتُولَاءِ وَهَتُولَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ }<sup>(١٠)</sup>

لكن القرآن وضع لام التفرغ في آيتين :

- ﴿ كَلَّا سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدًّا ﴾<sup>(٧٩)</sup> (مريم).
- ﴿ قُلْ مَنْ كَانَ فِي الضَّلَالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مَدًّا ﴾<sup>(٧٥)</sup> (مريم).

فلم يقل ( ونمده من العذاب مدًّا ) وذلك لأنه أفرغ له كل المد ، فلا مزيد ، وكذلك من كان في الضلالة ، والله يأمر نبيه أن يدعوا عليه بدوام وعدم انقطاع الضلالة حتى تفرغ الدنيا من حوله إلا من تلك الضلالة لذلك يضع لام التفرغ ليحقق له الدوام ، والاكتمال .

- (١) سورة الحجر . الآية (١٩) . سورة ق . الآية (٧) .
- (٢) سورة نوح . الآية (١٢) .
- (٣) سورة لقمان . الآية (٢٧) .
- (٤) سورة آل عمران . الآية (١٢٤) .
- (٥) سورة آل عمران . الآية (١٢٥) .
- (٦) سورة البقرة . الآية (١٥) .
- (٧) سورة الأعراف . الآية (٢٠٢) .
- (٨) سورة الطور . الآية (٢٢) .
- (٩) سورة الإسراء . الآية (٦) .
- (١٠) سورة الإسراء . الآية (٢٠) .

## ٨- وَنُقَدِّسُ لَكَ :

الفاعل (نقدس) متعد بذاته ، فهو يقبل ضمير المفعولية ، يمكن أن تقول : نقدسه ، وقد جاء مرة واحدة في القرآن الكريم لكن باستعمال لام التفرغ :

• ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾﴾ (البقرة).

قال (وَنُقَدِّسُ لَكَ) ولم يقل (نقدسك) برغم أن الفعل متعد بذاته ، لا يحتاج إلى اللام ، وقد جاء الفعل في القرآن الكريم مرة واحدة ، على لسان الملائكة ، ولكنه جاء باللام التي لا يتطلبها الفعل لغوياً (وَنُقَدِّسُ لَكَ) ، لتكون لام التفرغ .

فالفرق بين نقدسك ، ونقدس لك : هو الفرق بين التقديس المتقطع ، والتقديس السرمدي ، إن القرآن يكشف قدرات هذه اللغة العظيمة ، فإذا كان الفاعل مجبولاً على الفعل بحيث يكون الفعل سجيةً فيه ، استخدم اللام ولم يجعل الفعل يتعدى مباشرة للإشارة إلى دوام الفعل وسرمديته في الفاعل . أما إذا كان الفعل يحدث وينقطع حتى لو كان كثيراً ، لكنه ليس سجيةً مجبولاً عليه ترك الفعل يتعدى بطبيعته . ولأن الفعل ورد على لسان الملائكة وضع لام التفرغ لأنهم يقدسون ربهم بصورة سرمدية ، فالتقديس سجية وطبيعة ، ولو جاء التقديس من الناس لقالوا (نقدسك) ؛ لأن تقديس الناس منقطع ، فهم منشغلون بحياتهم ، وقليل منهم الشكور . لكننا هنا نتكلم عن الملائكة التي يختلف تقديسهم عن تقديسنا ، فنحن بني البشر منشغلون بحياتنا ، وقليل من عباده الشكور ، فالبشر لا يقدسون له ، لكن كثير منهم يقدسونه ، والفرق بين يقدسونه ، ويقدسون له : أن الثانية تفيد الديمومة ، فتقديس الملائكة لله هو ديدنهم ، فلا عمل لهم سواه .

ولو استعمل الفعل هنا بدون اللام لحمل الفعل ملمح الانقطاع ، فكان لابد أن نضع تلك اللام لتضفي هذه الوظيفة الدلالية وهي التفرغ ، تفرغ الفاعل للفعل ، والملائكة متفرغة لهذا العمل ، فهو ديدنهم ، ولا عمل لهم سواه ، فكانت اللام لبيان أن تقديسهم لربهم يتم بصورة سرمدية ، وأنه سجية وطبيعة فيهم ، ولو كان التقديس من الناس لجاء التعبير خلواً من اللام ؛ لأن تقديس الناس منقطع .

أرأيت كيف أن القرآن يكشف قدرات هذه اللغة العظيمة ؟ فإذا كان الفعل يحدث وينقطع حتى لو كان كثيراً ، تُرك الفعل يتعدى بذاته أما إذا كان الفاعل مجبولاً على الفعل بحيث يكون الفعل سجيةً فيه استخدم اللام للإشارة إلى دوام الفعل وسرمديته في الفاعل ،

## ٨- وَأَشْكُرُوا لِي :

الفعل شكر متعد بذاته ، تقول : شكرته ، وشكرني ، فهو لا يتعدى باللام ، لكن القرآن يستعمل الفعل بدون لام ، ويستعمله بلام : وذلك للتفريق بين الشيء الذي يجب أن تشكره في وقته ، والذي تشكره في كل وقت ، فعند النعمة التي تستحق الشكر من الله يأتي بالفعل بدون لام ، لأنه ليس مطلوباً منك عند الحصول على النعمة إلا شكرها ، ولا يتطلب منك التفرغ لشكرها ، ولا هي تستحق التفرغ لشكرها ، فمقابل النعمة الشكر فحسب ، بل إن الإنسان لمعود إن فعل الشكر ليزيده الله من النعم ، لكن إذا كان الشكر لله عَزَّ وَجَلَّ ، فنعمة عليك لا تنتهي ، ولا تنقطع ، لذلك يضع اللام عند شكر الله لدوام الشكر ، وشكر الله هو عبادته ،

فالاستعمال الأول للفعل (شكر) مع اللام في قوله تَعَالَى : { وَأَشْكُرُوا لِلَّهِ } { إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ }<sup>(١)</sup> ، وضع لام التفرغ (وَأَشْكُرُوا لِلَّهِ) ، فلم يقل (واشكروه) لأن الانقطاع عن شكره يعني انصراف عن عبادته ، فمقابل الشكر هو الكفر ، ولذلك قال : (إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ) أي أن التوقف عن الشكر يعني أنهم انصرفوا عن عبادته .

ولا شك أن لام التفرغ تفرق لك بين النعمة وصاحبها ، فالنعمة لا يجب أن تتفرغ لها وحدها بالشكر لأنك يجب أن تشرك معها صاحبها ، لكن صاحب النعمة أولى أن تفرده بالشكر ، ولا تشرك معه في الشكر شيء. وأن تديم هذا الشكر .

وقد تكرر استعمال اللام مع شكر رب العزة بشكل ثابت :

● ﴿ فَادْكُرُوفِي أَذْكُرْكُمْ وَأَشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونَ ﴾ (١٥٢) (البقرة) .

(١) سورة البقرة . الآية (١٧٢) .

- ﴿كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ، بَلَدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبُّ غَفُورٌ ﴿١٥﴾﴾ (سبا).
- ﴿فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ، إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١٧﴾﴾ (العنكبوت).
- ﴿أَنْ أَشْكُرَ لِي وَلَوْلَا ذَلِكَ إِلَى الْمَصِيرِ ﴿١٤﴾﴾ (لقمان).
- ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنْ اشْكُرْ لِلَّهِ وَمَنْ يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴿١٣﴾﴾ (لقمان).

فقد وضع لام التفرغ في الأمثلة السابقة مع شكر الله ، فقال : ( وَأَشْكُرُوا لِي ) ولم يقل ( واشكروني ) ، وقال ( وَأَشْكُرُوا لَهُ ) ولم يقل ( واشكروه ) فوضع اللام مع شكر رب العزة ، لأن شكره يجب ألا ينقطع .

والاستعمال الثاني للفعل شكر مع اللام في قوله تعالى : { وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ } <sup>(١)</sup> وضع لام التفرغ ( فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ ) فلم يقل ( فإنما يشكر نفسه ) وتكرر الأمر أيضا في سورة النمل :

- ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنْ اشْكُرْ لِلَّهِ وَمَنْ يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴿١٣﴾﴾ (لقمان).

وذلك لأن الله غني عن الشكر ، هو يطالبك به ليعطيك إياه ، لذلك لما كان حق الله دوام الشكر ، والشكر يردده لك ، كان دوام الشكر لله في الحقيقة دوام لشكر النفس . ولذلك اقترنت اللام بشكر الله ، وبشكر النفس ، لأنك لما تشكر الله فإنما تشكر النفس ، فكان الشكران وجهين لعملة واحدة .

وفي المقابل جاء فعل الشكر بدون اللام بعيداً عن رب العزة المستحق أن تفرده بالعبادة :

- ﴿فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمْ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا وَاشْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ

(١) سورة النمل . الآية (٤٠) .

تَعْبُدُونَ ﴿١١٤﴾ (النحل) .

- ﴿ قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ ﴿١٥﴾ (الأحقاف) .
- ﴿ وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ ﴿١٩﴾ (النمل) .

فلم يضع اللام مع النعمة ، فهي وإن كانت مستوجبة الشكر من المنعم عليه ، إلا أنها لا تقتضي التفرغ لذلك . فرب العزة لا يطالبك التفرغ لشكر نعمته ، يكفي أن تشكرها فحسب ، ولو فعلت فقد تأذن أن يزيدك لهذا الشكر . يطلب مقابل النعمة شكرها .

• { وَأَشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ }<sup>(١)</sup> : لم يقل واشكروني ولا تكفروني ، لكنه وضع اللام مع شكر الله أي عبادته ، لأنه يجب ألا تنقطع .

• { كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَأَشْكُرُوا لَهُ }<sup>(٢)</sup> : لم يقل واشكروني ولا تكفروني ، لكنه وضع اللام مع شكر الله أي عبادته ، لأنه يجب ألا تنقطع .

• { فَأَبْغُوا عِندَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَأَشْكُرُوا لَهُ }<sup>(٣)</sup> : لم يقل واشكروني ولا تكفروني ، لكنه وضع اللام مع شكر الله أي عبادته ، لأنه يجب ألا تنقطع .

• { أَنْ أَشْكُرَ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَى الْمَصِيرِ }<sup>(٤)</sup> : لم يقل واشكروني ولا تكفروني ، لكنه وضع اللام مع شكر الله أي عبادته ، لأنه يجب ألا تنقطع .

• { وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنْ اشْكُرْ لِلَّهِ وَمَنْ يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ }<sup>(٥)</sup> : لم يقل واشكروني ولا تكفروني ، لكنه وضع اللام مع شكر الله أي عبادته ، لأنه يجب ألا تنقطع .

(١) سورة البقرة . الآية ( ١٧٢ ) .

(٢) سورة سبأ . الآية ( ١٥ ) .

(٣) سورة العنكبوت . الآية ( ١٧ ) .

(٤) سورة لقمان . الآية ( ١٤ ) .

(٥) سورة لقمان . الآية ( ١٢ ) .

## ٩. فَاسْتَمِعُوا لَهُ

الفعل سمع متعد بذاته ، فهو يقبل ضمير المفعولية ، وقد ورد متعدياً بذاته غير مرة في القرآن الكريم : { بَعْدَ مَا سَمِعَهُ }<sup>(١)</sup> ، { لَأَسْمَعَهُمْ }<sup>(٢)</sup> ، { إِذْ سَمِعْتُمُوهُ }<sup>(٣)</sup> ، { هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ }<sup>(٤)</sup> ، { كَانَ لَمْ يَسْمَعَهَا }<sup>(٥)</sup> ، { فَاسْمَعُونَ }<sup>(٦)</sup> . فالفعل لا يحتاج إلى اللام ليصل إلى مفعوله ، ومع ذلك وجدنا اللام تدخل على الفعل غير المحتاج لها نحوياً لتضفي عليه وظيفتها الدلالية وهي خاصية التفرغ .

وقد استعملت لام التفرغ في قوله تعالى : { أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا }<sup>(٧)</sup> الركز هو الصوت الخفي ، فكان وضه اللام لبيان أنك لن تسمع منهم أدنى صوت وإن تفرغت لسماعهم .

وتكرر استعمال اللام مع الفعل سمع في قوله تعالى : { إِذَا رَأَيْتَهُمْ مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا }<sup>(٨)</sup> زاد اللام هنا ( سَمِعُوا لَهَا ) ، فلم يقل ( سمعوا تغيظها ) : دلالة على دوام ذلك ، وأن هذا الصوت الذي يسمعونه وحدهم لا ينقطع عنهم ، وتكرر ذلك لإشارة ديمومة استماع الكافرين لصوت جهنم في قوله تعالى : { إِذَا أُلْقُوا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَهيقًا وَهِيَ تَفُورٌ }<sup>(٩)</sup> ، وذلك بخلاف قوله تعالى : { لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ }<sup>(١٠)</sup> فلم يحتج أن يضع اللام ويقول : لما سمعوا للذكر ، لأنهم لم ينقطعوا للاستماع ،

(١) سورة البقرة . الآية ( ١٨١ )

(٢) سورة الأنفال . الآية ( ٢٣ ) .

(٣) سورة النور . الآية ( ١٢ ) والآية ( ١٦ ) .

(٤) سورة الشعراء . الآية ( ١٧٢ ) . .

(٥) سورة الجاثية . الآية ( ٨ ) . سورة لقمان . الآية ( ٧ ) .

(٦) سورة يس . الآية ( ٢٥ ) .

(٧) سورة مريم : ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هَلْ يُحِشُّ مِنْهُمْ مِنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا ﴾

(٨) سورة الفرقان . الآية ( ١٢ ) .

(٩) سورة الملك . الآية ( ٧ ) .

(١٠) سورة الفلم . الآية ( ٥١ ) .

وكذلك قوله تعالى: { لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا }<sup>(١)</sup> فلم يقل لا يسمعون لحسيسها لأن الفاعل هنا أهل الجنة ، وهم مبعدون عن النار فلا يسمعون شيئاً منها ، فلا حاجة إلى لام التفرغ الذي تفيد التفرغ للفعل عند نفي الفعل ذاته من الجذر .

وجاء الفعل (سمع) مع القرآن الكريم مرة باللام وأخرى بدونها ، وبالطبع سيكون استعمال اللام للتفرغ للاستماع له : كما في قوله تعالى :

- ﴿ وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ (٢٤) (الأعراف) .
- ﴿ وَأَنَا أَخَذْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰ ﴾ (١٣) (طه) .
- ﴿ يَتَأْتِيهَا النَّاسُ ضُرْبَ مَثَلٍ فَاسْتَمِعُوا لَهُ ﴾ (٧٣) (الحج) .
- ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴾ (٢٦) (فصلت) .

قال في الآية الأولى : ( فَاسْتَمِعُوا لَهُ ) : ولم يقل ( فاستمعوه ) . وقال في الثانية ( فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى ) ولم يقل : فاستمع ما يوحى ، وقال في الثالثة : ( فَاسْتَمِعُوا لَهُ ) ، ولم يقل فاستمعوه ، وفي الرابعة : ( لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ ) ولم يقل : لا تسمعوه .

في المثال الأول وضع لام التفرغ لوجوب أن تنصت للقرآن ولا تشغل بغيره ، وفي المثال الثاني يطلب رب العزة من موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ : التفرغ لما يوحى إليه ، فزاد لام التفرغ التي تتطلب منه أفرغ حواسه كلها لوحي الله . وفي الثالث : يطلب رب العزة من الناس ألا يغيب هذا المثل عن بالهم أبداً ، فكل ما يعبد من دون الله لا يستطيع أن يخلق أضعف الكائنات وهو الذباب ، حتى لو اجتمع كل تلك الآلهة الزائفة . فهذا المثل أبلغ في بيان جهل ورداءة عقول من يعبد غير الله . لأنهم يعبدون ما يعجز عن خلق أحقر المخلوقات . ولو اجتمعوا له . لهذا زاد لام التفرغ : لأن هذا المثل يجب ألا يغيب عن بالهم .

أما في المثال الأخيرة وهذه المرة الكلام ليس على لسان رب العزة ، بل على لسان الذين كفروا ، فقد زادوا اللام في نهيمهم أتباعهم عن الاستماع للقرآن ليكون النهي

(١) سورة الأنبياء . الآية (١٠٢) .

شاملاً كل الأوقات ، فأرادو من الناس الانصراف التام عن استماعه ، أي القطيعة التامة التي لا يتخللها أي صلة .

وانظر للفعل نفسه (سمع) مع الفاعل نفسه (الذين كفروا) مع المفعول به المسموع وهو القرآن الكريم ، فكما رأيت في المثال السابق استعمل اللام في قوله : { وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا سَمْعَوا هَذَا الْقُرْآنِ }<sup>(١)</sup> فاستعمل اللام للحث على المداومة عن الانصراف عنه ، سجد اللام ستحذف في سورة الأنبياء : { إِلَّا أَسْمَعُوهُ }<sup>(٢)</sup> دلالة أن الكفار لا يتفرغون للاستماع له ، وإنهم منشغلون عنه . بل كانوا يتناهون عن الإنصات والتفرغ للاستماع له ، فاستعمل اللام عن إرادة التفرغ للانصراف عنه ، ولم يستعمل اللام لبيان عدم التفرغ في استماعه .

ووردت اللام مرة أخرى مع الفعل تسمع في سورة المنافقين : { وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعُ لِقَوْلِهِمْ }<sup>(٣)</sup> لأنه يتحدث عن المنافقين الذين إن تكلموا أخذوا بمجامع القلوب بما يملكون من فصاحة وذلاقة اللسان . ولهذا زاد لام التفرغ دلالة على أن الناس لا تشغل عن كلامهم بشاغل . وقارن ذلك بناصح يس الذي صرخ في قومه ليسمعه ويتبعوا المرسلين : { فَاسْمَعُونِ }<sup>(٤)</sup> فلم يضع اللام ، لأنه لا يريد منهم التفرغ للاستماع له ، بل يريدهم أن يعيروه الانتباه ولو لمرة ، والواقع أنهم لم يعيره اهتماماً ، بل وثبوا عليه وثبة رجل واحد وقتلوه ، فكانت آخر كلماته ( إِنْ ءَامَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ ) فلا وقت ليطلب منهم التفرغ لسماع قوله . إنه يحذرهم أنهم إن قتلوه ، فليس فقط فوتوا على أنفسهم الخير ، بل وجلبوا على أنفسهم الهلاك ، وقد أهلكهم الله بصيحة جبريل بعد قتله .

(١) سورة فصلت ، الآية (٢٦) .

(٢) سورة الأنبياء ، الآية (٢) .

(٣) سورة المنافقون ، الآية (٤) .

(٤) سورة يس : { وَجَاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ (٢) اتَّبِعُوا مَنْ لَا يَسْتَكْبِرُ أَجْرًا وَهُمْ مُهْتَدُونَ (١١) وَمَا لِي لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (١٢) ءَأَتَّخِذُ مِنْ دُونِهِ ءَالِهَةً إِنْ يُرِيدِنِ الرَّحْمَنُ بَضْرًا لَا تَعْنِي شَفَعَتُهُمْ شَيْئًا وَلَا يُنْقِذُونِ (١٣) إِنْ إِذَا لَفِيَ ضَلَالٍ مُبِينٍ (١٤) إِنْ ءَامَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ (١٥) } .

## ١٠. تَسْبِيحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ

الفعل (سَبَّحَ) متعد بذاته ، فهو يقبل ضمير المفعولية ، وقد جاء في القرآن الكريم متعدياً يقول الله عَزَّ وَجَلَّ : { وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً }<sup>(١)</sup> ، { وَتَسْبِيحُهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً }<sup>(٢)</sup> ، { وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا }<sup>(٣)</sup> ، { وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَرَ الشُّجُودِ }<sup>(٤)</sup> ، { وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَرَ النُّجُومِ }<sup>(٥)</sup> ، وترى أن الأمر بالتسبيح ارتبط بزمن ، مما يتنافى مع لام التفرغ التي تعني التفرغ للفعل ، أو ديمومته :

• فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَرَ الشُّجُودِ : أي أواخر الصلوات في الليل ( وجاءت جمعاً لكثرة السجودات ، فلكل كل سجدة دبر يستوجب التسبيح .

• فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَرَ النُّجُومِ : أي أواخر الليل ، أي الركعتان قبل الفجر ، ولم تأت جمعاً بل جاءت مصدرًا لأن النجوم لها لها دُبُرًا واحدًا في وقت السحر .

• وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً : أي التسبيح عند الغدو للعمل ، وعند الرجوع منه .

• كَيْ تَسْبِيحَكَ كَثِيرًا : جاء فعل التسبيح هنا بالتعددية المباشرة (تَسْبِيحَكَ) بدون اللام على لسان موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ وأخاه هارون ، وهما لن ينقطعوا للتسبيح ، فمن المؤكد أنهما سيسبحان الله كثيرًا ، لكنهما لن يتفرغ لهذا التسبيح تفرغاً كلياً. لهذا لم يضاف اللام . بينما لو كان المسبِّح كالملائكة ممن يستديم منهم التسبيح لوضع اللام .

الاستعمال الأول للفعل ( سبَّح ) مع لام التفرغ :

(١) سورة الأحزاب . الآية (٤٢) .

(٢) سورة الفتح . الآية (٩) .

(٣) سورة الإنسان . الآية (٢٦) .

(٤) سورة ق . الآية (٤٠) . .

(٥) سورة الطور . الآية (٤٩) . .

• ﴿ فِي بُيُوتٍ أُذِنَ لِلَّهِ أَنْ تَرْفَعَ وَيُذَكِّرَ فِيهَا أَسْمَهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ ﴾ (٣٦) رِجَالٌ لَا لُتْهِمِهِمْ تَجْرَةٌ وَلَا يَبِيعُ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ ﴿٣٧﴾ (التور).

فبيوت الله لا ينقطع فيها التسبيح لله. فمكانيًا.. لا عمل لمن يدخلها إلا تسبيحه، وزمانيًا.. لا تخلو لحظة من لحظات الزمن اليومية من تسبيح الله، فالآذان وحده قبل أن ينتهي، يكون ثمة مكان آخر قد أخذ في الآذان لاختلاف خطوط الطول. وهكذا فالتسبيح سرمدى.

وذلك لأن البيوت لا ينقطع فيها التسبيح، إذ يحقق السرمدية توالي الناس، فأنت تسبِّح هذه اللحظة وغيرك يسبِّح في لحظة أخرى، فالتسبيح السرمدى لا يرجع إلى ذات الفاعل، بل إلى تكرار الفاعلين، فالحدث هو الدائم لا الفاعل، يصنع دوامه أفراد عديدون يحلون محل بعضهم البعض. فالبيوت عامرةٌ دوماً، لكن ليس بذات واحدة، بل بتعاقب الذوات في المكان نفسه، فهو إحلال في المحل.

الاستعمال الثاني للفاعل (سبح) مع لام التفرغ: (السموات والأرض)

• ﴿ يُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴾ (٤٤) (الاسراء).

وضع لام التفرغ (تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ) ، فلم يقل (تسبحه السموات السبع والأرض). وذلك لديمومة التسبيح فهي متفرغة لذلك. فقد جبلت على ذلك.

وضع العدد بعد المعدود (السبع بعد السموات)، لأن العدد ما عاد يقبل احتمالاً آخر، والعدد فاقد الاحتمال يأتي فيه المعدود قبل العدد، بينما في بداية خلق السموات كان يمكن أن يخلقها سبعا أو تسعا أو ثلاثا، وضع العدد أولاً، فقال (

خلق سبع سماوات ) لكن بعد استقرار الأمر على العدد ، قال ( السماوات السبع )  
وجاء بالأرض مفردة لأنها واحدة .

وتكرر تعبير تسبيح السماوات والأرض أكثر من مرة وخاصة في استهلالات السور  
( الحديد ، الحشر ، الصف ، الجمعة ، التغابن ) : { سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا  
فِي الْأَرْضِ }<sup>(١)</sup> ، { يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ }<sup>(٢)</sup> ، { يُسَبِّحُ لَهُ، مَا فِي السَّمَوَاتِ  
وَالْأَرْضِ }<sup>(٣)</sup> ، { أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ، مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ }<sup>(٤)</sup>

وجمع في الاستعمال بين الماضي والمضارع وذلك للجمع بين البعدين الرأسي  
والأفقي : فالمضارع ( يُسَبِّحُ لِلَّهِ ) هو الشريحة الأفقية أي الطبقة الزمنية المتكررة ،  
ففي كل شريحة التسبيح متجدد ، فالمضارع للتعبير عن التسبيح في كل شريحة من  
شرائح الزمان ، كل طبقة زمنية على حده ، ومجموع الشرائح الأفقية هذه هو ما  
يصنع البعد الرأسي الذي يعبر عنه بالفعل الماضي ، فالماضي ( سَبَّحَ لِلَّهِ ) أي الزمان  
كله لأن الزمان مخلوق قد انتهى الله من خلقه ، فالزمان كله بالنسبة لله قد مضى  
، لأنه قد خلق الزمان وفرغ منه . وبذلك عبر عن الحالة الدائمة الماضية والقادمة  
، أو ما يسمى بالمفهوم الرأسي ، وهو تحقق الحدث ملازماً للزمن .

والى جوار المغايرة السابقة بين الماضي والمضارع ، هناك مغايرة أخرى وهي  
عطف الأرض مباشرة ( مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ) أو عطفها باستقلالية : ( وَمَا فِي  
الْأَرْضِ ) فالتعبير الأول : { مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ }<sup>(٥)</sup> : يراعى المفعول (الله) فهو  
مستحق التسبيح فقد جمع بينهما لاتحاد المسبَّح ، فالله في المرتين مستحق للتسبيح  
، ولا يتجه التسبيح إلا إليه . فإن راعى الفاعل واختلافه استعمل التفريق ( مَا فِي

(١) سورة الحديد . الآية (١) . سورة الصف . الآية (١) .

(٢) سورة الجمعة . الآية (١) . سورة التغابن . الآية (١) .

(٣) سورة الحشر . الآية (٢٤) . سورة التغابن . الآية (١) .

(٤) سورة النور . الآية (٤١) .

(٥) سورة الحديد . الآية (١) .

السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ) وإن راعي المفعول ( الله ) استعمل التوحيد لاستحقاقه ذلك .

والتعبير الثاني { مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ }<sup>(١)</sup>: يراعى الفاعل ، لأن المسبحون في السماء يختلفون عن المسبحين في الأرض ، فمن في السماء : دائم التسبيح كثيره ، من في الأرض يقل تسبيحهم عما في السماء . من في السماء يسبح ولم يرتكب معصية قبلاً ، من في الأرض يسبح وقد ارتكب معاصي .

(١) سورة الحنشر . الآية (١) سورة الصف . الآية (١) . سورة الجمعة . الآية (١) . سورة التغابن . الآية (١) . .

## ١٢. وَإِنَّا لَهُ لَنَصِحُونَ

النصح في اللغة يدلُّ على ملاءمة بين شيئين وإصلاح لهما. أصلُ ذلك النَّاصِح: الخياط الذي يصلح بخيطه ما تمزق ، والنَّصِيحَة: خلاف الغشِّ. ووصفت التوبة بالنصوح لبيان أنها صحيحة ليس فيها خرقٌ ولا تلمةٌ وناصِحُ العَسَل: خالصه الذي لا يتخلله ما يشوبه<sup>(١)</sup>.

وقد وردت كلمة النصح في القرآن الكريم مصحوبة باللام لبيان التفرغ للنصح، فجاء التعبير: {وَإِنَّا لَهُ لَنَصِحُونَ} <sup>(٢)</sup> على لسان إخوة يوسف لأبيهم ، ليبينوا لأبيهم أنهم لا يألون جهداً في نصح أخيههم بشكل دائم غير منقطع ليحملوا أباهم على الموافقة بأن يعطيهم يوسف .

وتكرر الاستعمال باللام في قول أخت موسى: {وَهُمْ لَهُ لَنَصِحُونَ} <sup>(٣)</sup> فلم تقل (وهم ناصحوه) للأمر نفسه لتبين أن أهل البيت لا تتخلل خدمتهم للوليد أي انقطاع يذكر لتحملهم على الموافقة باستحضار أمها لرضاعة الوليد .

وتكرر الاستعمال باللام في قول مؤمن آل فرعون لموسى عَلَيْهِ السَّلَامُ : {قَالَ يَمْؤِسِيْ اِبْنِ الْمَلَا يَا تَمْرُوْنَ بِكَ لِيَقْتُلُوْكَ فَاخْرُجْ اِنِّيْ لَكَ مِنَ النَّصِيْحِيْنَ} <sup>(٤)</sup> فلم يقل له: إني من ناصحيك ، لكنه استعمل لام التفرغ لبيان أن نصحه له دائم ، وليس هذه المرة فحسب ، فأفاد ديمومة النصح .

وورد الأمر نفسه على لسان إبليس في سورة الأعراف: {وَقَاسَمُهُمْ اِنِّيْ لَكُمَّا لَئِن

(١) ابن فارس ، المقاييس ، مادة ( نصح ) .

(٢) سورة يوسف . الآية (١١) .

(٣) سورة القصص . الآية (١٢) .

(٤) سورة القصص . الآية (٢٠) .

النَّصِيحِينَ<sup>(١)</sup> لبيان فروغه للنصح لهما ، ليحمل آدم وحواء على الاستجابة لوسوسته.

واستعمل اللام مرة خامسة في قوله نَعَالَى : { لَيْسَ عَلَى الضَّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَى وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يَنْفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ }<sup>(٢)</sup> فلم يقل : (إذا نصحوا الله ورسوله ) وذلك ليقرر أن نفي الحرج لا يكون إلا بديمومة النصح .

وجاءت اللام مع النصح على لسان الأنبياء لأقوامهم في اللحظة الأخيرة ، لبيان ديمومة النصح لهم ، فقالها هود عليه السلام : { أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ }<sup>(٣)</sup> ليثبت فروغه للنصح له ، وأنه نصحه لهم لم يتخلله انقطاع . وقالها صالح عليه السلام { لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِنْ لَا تُحِبُّونَ النَّصِيحِينَ }<sup>(٤)</sup> فاستعمل اللام مع فعله ( وَنَصَحْتُ لَكُمْ ) لديمومة نصحه لهم ، وحجبها مع موقفهم القلبي ، فهم لا يحبون أي ناصح ، وكرر القول نفسه شعيب عليه السلام : { لَقَدْ أَبْلَغْنَاكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ }<sup>(٥)</sup> فاتحدت عبارتا شعيب وصالح عليهما السلام لاتفاق الوضع ؛ فكلاهما انتهى إلى أن قومه من المهلكين ، لا فارق إلا في تنفيذ الحكم في قوم شعيب ، بينما قوم صالح في طريقهم إلى ذلك :

شعيب : ﴿ فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ آسَأَ عَلَى قَوْمٍ كَافِرِينَ ﴿٩٣﴾ (الأعراف) .

صالح : ﴿ فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِنْ لَا تُحِبُّونَ النَّصِيحِينَ ﴿٧٩﴾ (الأعراف) .

(١) سورة الأعراف . الآية (٢١) .

(٢) سورة التوبة . الآية (٩١) .

(٣) سورة الأعراف . الآية (٦٨) .

(٤) سورة الأعراف . الآية (٧٩) .

(٥) سورة الأعراف . الآية (٩٣) .

فلا اختلاف سوى في التذييل الذي يكشف رحيل القوم مع عبارة شعيب (فَكَيْفَ  
ءَأْسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَافِرِينَ ) والأسى يقال لمن فاتته ما كان يجب أن يكون في يده ، بينما  
عبارة صالح توبيخ لمن هم مازالوا على قيد الحياة ولكن لا ينتصحون (وَلَكِنَّ لَا  
تُحِبُّونَ النَّصِيحَ ) .

واستعمل نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ لام التفرغ في كلام قومه : { أَبْلَغُكُمْ رَسُولَتِ رَبِّي وَأَنْصَحُ  
لَكُمْ }<sup>(١)</sup> فلم يقل ( وأنصحكم ) معلناً عن اعتزامه ديمومة النصح لهم ، وأنه لن  
يألو جهداً في ذلك . أما التعبير الأخير فجاء أيضاً على لسان نوح في قوله : { وَلَا  
يَنْفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ }<sup>(٢)</sup> فجمع بين التعبيرين : النصح مجرداً من  
لام التفرغ والنصح مصحوباً بلام التغير ، فاستعمل (نُصْحِي ) بدون لام التفرغ  
واستعمل (إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ ) بلام التفرغ ، فلم يقل ( أن أنصحكم ) والسر  
في ذلك أن وظيفة نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ أن يتفرغ للنصح لهم فلا بد عند التعبير عن  
وظيفته أن يثبت اللام ، لأن رسالته تتمثل في التفرغ للنصح .

وفي الثانية يتحدث نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ عن أمر افتراضي هو إن أراد الله أن  
يغويهم ، إذن فلا نصح ، ولا ممارسة له ولهذا جاء بالنصح خالياً من لام التفرغ  
لأنه لن يقوم به ، أما القولة الثانية فأثبت فيها لام التفرغ لأن تلك عادته بمعنى أنه  
لو أراد أن يفعل ما فعله إلا مصحوباً بلام التفرغ .

ولعلك لاحظت اختلاف المصدرين ، فاستعمل المصدر الصريح في الحالة الأولى  
( نصحي ) واستعمل المصدر المنسب من أن والفعل في الحالة الثانية (أَنْ أَنْصَحَ  
لَكُمْ) والفارق بين طبيعة كل استعمال أن المصدر الصريح هو مفهوم أي لا يشترط  
أن يكون مستعملاً ، بينما المصدر المنسب هو مصدر تطبيقي أي تحقيق المفهوم

(١) سورة الأعراف . الآية (١٢) .

(٢) سورة هود . الآية (٣٤) .

على أرض الواقع ، وانظر إلى قوله تَعَالَى لما تكلم عن فرض الصيام استعمل المصدر الصريح ( كتب عليكم الصيام ) ، لكنه لما أراد تطبيق الصيام استعمل المصدر المنسب فقال ( أن تصوموا خير لكم ) فهنا أيضاً النصح مفهوم لا يحدث ، فاستعمل له المصدر الصريح ولم يستعمل معه لام التفرغ لأنه لا يتم ، وأن أنصح لكم حدث تطبيقي يريد أن يفعله لذلك استعمل معه المصدر المنسب ووضه معه لام التفرغ لأنها طبيعته كلما عمل أو أراد العمل سيكون عمله بهذا الأسلوب الصاي في من معكوسه .

وهكذا كانت كل استعمالات النصح يتلازم معها لام التفرغ إلا في مرة واحدة ( وَلَا يَنْفَعُكُمْ نُصْحِي ) وذلك لأنه عند إغواء الله لهم ، لن يفيده نصحه القليل أو الكثير ، ولن يفيدهم أي نصح ، لهذا لا جدوى لاستعمال لام التفرغ لأن النصح كله لا جدوى منه .

## ١٣. وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ

قال الله تعالى :

• ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴿١٠﴾ ﴾ (الحجر).

فلم يقل ( وإنا لحافظوه ) بل زاد لام التفرغ ليبين دوام الحفظ واكتماله ، وأن الحفظ لا يشوبه شائبة .

وأقف عند التعبير لغويًا : فقد استعمل التوكيد ( إِنَّا ) : لأن ثمة منكرين يرون أن القرآن ليس مُنزلاً من عند الله ، فيأتي التوكيد لكسر إنكارهم . واستعمل الجمع للتعظيم واستيجاب الهيبة ، والله يتحدث عن ذاته بالمفرد حتى لا يظن ظانُّ أنه متعدد ، ويتحدث عن أفعاله بالجمع لاستحضار جلالته . وأدغم بين النونين فلم يقل (إننا) لأن الحدث غير متكرر .

أما تكرار (نحن) فالقصر التقابلي أي نحن وليس غيرنا ، ولأهمية هذا الفعل ، فالله لم يستعمله إلا في ثلاث : تنزيل القرآن ، الإحياء والأماتة ، وراثه الأرض ومن عليها . فهي الأفعال العظام للتقدير الجليل ، وليس منها ماضيًا سوى تنزيل القرآن .

ولم يقل ( أنزلناه ) ذلك لأن للقرآن نزولين : الأول إنزال القرآن دفعة واحدة في ليلة واحدة مباركة هي ليلة القدر وهذا كان من اللوح المحفوظ في السماء السابعة إلى البيت المعمور في السماء الأولى ، أي أن الإنزال ليس إلا سماويًا ، ثم يأتي التنزيل وهو قيام جبريل عليه السلام بإنزال القرآن منجمًا على محمد صلى الله عليه وسلم على مدى بعثته التي استغرقت ثلاث وعشرين سنة ، والقرآن هنا يستعمل التنزيل أي يتحدث النزول التدريجي وهو النزول إلى الأرض ، بخلاف

قوله (إنا أنزلناه) فهي خاصة بالمرحلة الأولى السماوية .

وأعاد التوكيد ثانية (وَإِنَّا) لبيان أن الحفظ عملية مستقلة لا تقل أهمية عن تنزيهه . والعطف إثبات لأن التنزيل من عند الله ، فكأنه ربط التنزيل والحفظ ، فالدليل على أنه من عند الله أنه لن يتطرق له تغيير بزيادة أو نقص ، ليمتاز هذا الكتاب عن سائر الكتب السماوية ، لأن الكتب السابقة أنزلها الله فحسب ، وأوكل حفظها لأخبارهم : {بِمَا أَسْتَحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ} <sup>(١)</sup> . فلحقها التحريف ، بينما مع القرآن لم يكتف بتنزيهه ، لكن تولى حفظ القرآن بنفسه ، فسلم من التغيير وحده ، وكانت سلامته تلك شهادة له أنه من عند الله .

وقد تقول إذن الكتب التي لحقها التحريف ليس فيها ما يثبت أنها من عند الله ، وأقول : إن بعد دخولها التحريف لا يعترف بها صاحبها ، فهو ليس فحسب لا يؤاخذك على أن تقول إنها بحالتها هذه ليست من عند الله ، لأنه قبلك لا يعترف بها ، فليست هذه ما أنزلها .

وزاد لام التفرغ ، لم يقل ( وإنا لحافظوه ) لأن ذلك تعهد بالحفظ دون تحديد وقت الحفظ ، ودرجته ، فزيادة لام التفرغ أي أننا لا نكتفي بحفظه ، لكننا لحفظه متفرغون ، فالحفظ دائم ، وشامل .

والحفظ ليس فحسب حماية الشيء ، فقد تصلح الحماية بعد التعرض للخطر ، لكن الحفظ يعني ألا يصل إليه خطر ، ولهذا استعمل الحفظ في حفظ الفروج التي لا يصلح معها إلا الوقاية من الأساس ، واستعملت مع الصلوات لبيان أن المطلوب ليس أداء الصلوات فحسب ، بل مراعاة أوقاتها ، وتنفيذها دون زيادة أو نقص ، وكذلك حفظ السماوات والأرض ، مما يفيد أنها لا يتطرق لها اختلال ، ففي الكلمة معنى الحماية والتعاهد ، ولما قال : { وجعلنا السماء سقفاً محفوظاً } أي

(١) سورة المائدة ، الآية (٤٤) .

تعهد استمرارها لا تقع على الأرض ، ومن أسماء الله : الحفيظ ليس لأنه لا يعزب عن حفظه أي شيء ، بل لأنه يتعهدا بالحفظ ، فالحفظ لا يتطرق له الفساد ، يظل المحفوظ في منجاة منه .

وتعبير { وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ }<sup>(١)</sup> تكرر بعد ذلك مرتين ، فقد أثر إخوة يوسف أن يستعملوا التعبير نفسه ، وهم من استعملوه في المرتين ، وكل مرة كان هذا التعبير هو ما يقدمونه لأبيهم بين يدي طلبهم أخيه من أبيهم ، فقد قدموه لما طلبوا منه أن يرسل معهم يوسف بحجة أن يرتع ويلعب ، وقدموه مرة أخرى لما طلبوا أخاهم الثاني بنيامين ليذهب معهم في رحلتهم إلى مصر . فهم يغالون في بيان حفظهم لأخيه باستعمال لام التفرغ .

أي أرسله معنا ونحن متفرغون لحفظه ، وليس ذلك فحسب ، فلن يتطرق إليه خطر من الأساس ، والعجيب أنهم قالوا التعبير نفسه مع بنيامين برغم أن الواقع كذب تعهدهم الأول .

الاستعمال الثاني للحفظ مع لام التفرغ في قوله تعالى : وتعبير { وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ }<sup>(٢)</sup> والنص يمدح الأزواج الذين يلتزمون العفة ، فيحافظون على فروجهم لأزواجهم فحسب ، واستعمل لام التفرغ ، فلم يقل ( والذين هم حافظو فروجهم ) ولام التفرغ لا تسمح بالتخلل ، أي أن الحفظ بدرجة كاملة ، فقد يحفظ المرء فرجه لكنه قد يفعل مقدمات الزنا ولا يكملها فيظل فرجه محفوظاً ، لا ، لام التفرغ تعني أنه لم يصدر منه تلك المقدمات .

والاستعمال الثالث للحفظ مع لام التفرغ : { وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ }<sup>(٣)</sup> وجاء على لسان إخوة يوسف ، ولم يقولوا : ( وما كنا حافظين الغيب ) ، فقد

(١) سورة يوسف . الآية (١٢) . والآية (٨١) ..

(٢) سورة المؤمنون . الآية (٥) . وسورة المعارج (٢٩) ..

(٣) سورة يوسف . الآية (٨١) ..

لقنهم كبيرهم بما يقولونه لأبيهم لأنه قرر ألا يرجع بعدما نكث بعهد مع أبيه بأنه سيأخذه أخاه ويرجعه ، وها هو أخوه قد أخذه عزيز مصر في دين الملك ، وما أخذه منهم إلا بهم ، فلم يكن القانون عند حاكم مصر أخذ السارق عبداً ، فهذه شريعتهم هم ، لكن عزيز مصر ( أخوهم يوسف دون أن يدروا ) سألهم عن جزاء السارق في شريعتهم ، فأجابوا عن ذلك ولا يخطر في بالهم أبداً أنه سيجد المسروق الذي يفتقده في رحل واحد منهم ، لذلك يلقنهم كبيرهم بأن يقولون لأبيهم : لقد أخبرنا العزيز بشريعتنا وما كنا نعرف ما سيحدث بأن أخانا سيكون سارقاً ، وربما لو كنا نعرف أنه السارق ما أخبرنا العزيز بشريعتنا في الحكم على السارق .

ولهذا وضع لام التفرغ ليفيد جهلهم التام بالغيب ، وأن هذا الأمر لم يخطر على بالهم كلية . وقد تكرر هذا الاستعمال في قوله تعالى : { فَأَلْصَقَتْ فَوِئْتُهُ حَفِظْتُ لِلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ }<sup>(١)</sup> ، فقال : ( حَفِظْتُ لِلْغَيْبِ ) بإثبات لام التفرغ ، فلم يقل : حافظات الغيب . والحديث عن حفظ الزوجات ما يجب عليهن حفظه في حال الغيبة من الفروج والبيوت والأموال والأولاد ، وقال صلى الله عليه وسلم عن خير النساء : إن نظرت إليك سرتك ، وإن أمرتها أطاعتك ، وإذا غبت عنها حفظتك في مالها ونفسها . فوضع لام التفرغ لبيان أنها لا تلمة يمكن الوصول إلى الحصن المحفوظ منها .

والاستعمال الرابع للحفظ مع لام التفرغ : { وَكُنَّا لَهُمْ حَفِظِينَ }<sup>(٢)</sup> ، فاستعمل لام التفرغ ( وَكُنَّا لَهُمْ حَفِظِينَ ) فلم يقل ( وكنا حافظيهم ) ، والحديث هنا عن الشياطين ، فالحفظ هنا ليس حماية الشياطين ، بل لمنعهم أن يزيغوا عن أمر سليمان ، فلا يتطرق إليهم فساد فيما سخرهم الله فيه .

(١) سورة النساء . الآية (٣٤) .

(٢) سورة الأنبياء . الآية (٨٢) .

وقد استعمل لام التفرغ لبيان أن الحفظ مطلق ، فلا يستطيع أحد منهم أن يترك سليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ ويمضي ، وكأن الله أوكّل بهم ملائكة لا يمكنهم معهم إلا الرضوخ . كما أفادت لام التفرغ عدم تسرب أي نقص في الحفظ ، لأنهم لو الأمر متروك لهم ، لأفسدوا ما يعملونه بعد عمله ، لا ، هو يأخذ على أيديهم ، فيظل للحفظ كماله ، وكأن لا غريم للحفظ يسحبه بعيداً عن نفسه .

والاستعمال الخامس للحفظ مع لام التفرغ : {وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ} (١) ، فلم يقل ( والحافظون حدد الله ) ، لبيان أن الأمر لا يتطلب المحافظة فحسب ، لكن ديمومة المحافظة وصفاءها من غريمها . فوجود اللام ليكون الحفظ شاملاً لكل حدود الله التي كلف بها عباده . فهي لا ترتضي وجود ولو نسبة ضئيلة من الضد ، فيكون وجودها إشارة إلى أنهم لا يضيعون ولو شيئاً واحداً من حدود الله ، وقد ختم الآية بقوله ( وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ) أي إن التزموا بالأوصاف المذكورة .

وهكذا كل شيء يستحق الحفظ التام كان يستعمل له لام التفرغ.

(١) سورة التوبة . الآية ( ١١٢ ) .

## ١٤- إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ

الفعل ( مَكَّنَّا ) أي أن يصبح الممكن كالمكان ، فأنت لا تسلب المكان مكانه ، أي أنه راسخ فيما يسيطر عليه ، فلا يززع قوته أحد كما قال ابن عاشور. ونسب الفعل لفاعل لا يرد فعله . فكان عدم المنازعة أفقياً باختيار لفظ مكن ، ورأسياً بالإضافة لضمير العظمة الإلهي ، فهي لا ينازع فيما مكن فيه ، وتلك مستمرة على مر الوقت ، راسخة ، وذلك الرسوخ ممتد . فهو كمال التمكين . أو التمكين المثالي الذي لا تمكين بعده .

والفعل متعد بذاته ، فهو يقبل ضمير المفعولية ، وقد جاء في القرآن الكريم متعدياً بذاته في أكثر من موضع : { مَكَّنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ }<sup>(١)</sup> ، { وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ }<sup>(٢)</sup> ، { قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ }<sup>(٣)</sup> ، { إِنْ مَكَّنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ }<sup>(٤)</sup> ، { وَلَقَدْ مَكَّنَّهُمْ فِيمَا إِنْ مَكَّنَّاكُمْ فِيهِ }<sup>(٥)</sup>. فهذه الاستعمالات تكشف أن الفعل لا يحتاج إلى اللام ، كما تكشف أنه تمكين لا يمنع وجود ممكنين آخرين .

وقد جاء استعمال الفعل ( مَكَّن ) مع لام التفرغ ليفيد أن الله لم يمكنه فحسب ، بل أفرغ له المجال ، فلم يكن هناك منافس له :

الاستعمال الأول : للفعل مَكَّن مع لام التفرغ :

● ﴿ وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ ﴾ (١١) ﴿يوسف﴾ .

(١) سورة الأنعام ، الآية (٦) .

(٢) سورة الأعراف ، الآية (١٠) .

(٣) سورة الكهف ، الآية (٩٥) .

(٤) سورة الحج ، الآية (٤١) .

(٥) سورة الأحقاف ، الآية (٢٦) .

﴿ وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَّبِعُوا مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ ﴾ (يوسف).

أما الأرض فهي ليست مطلق الأرض ، فكلمة الأرض لها استعمالان في القرآن : الأرض مطلقة ، أو يقصد بها دولة مخصوصة هي دولة مصر ، لكن القرآن يستعمل مصر ليقصد بها العاصمة بمعناها المدينة ، فإذا أراد الدولة وليس العاصمة فحسب استعمال تعبير ( الأرض ) فذلك نرى أن عهد يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ ، وكذلك عهد موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ وما يتصل بهما من شخصيات مثل فرعون ، وهامان ، وقارون ، وعزيز مصر ، وامرأة العزيز ، فكلمة مصر ومعناها المدينة تعني العاصمة فحسب ، وكلمة الأرض تعني الدولة كلها . وكان اسم هذه الدولة في لغة قومها تعني الأرض السوداء ، لهذا فقوله في الأرض في تمكين يوسف أي التمكين في هذه الدولة عندما أصبح عزيزاً لها .

ولام التفرغ هنا تفيد أنه لم يكن له منازع ، أي أن الله عَزَّ وَجَلَّ أفرغ هذه الدولة من أي شخص ينافسه ، فقد أجاز الله هذه الدولة إلى محنة لا تقدر عليها ، ومفتاح حل المحنة ليس إلا في يده ، فالملك مهموم برؤياه ، وتعبير الرؤيا ، وتفاذي عواقبها عند يوسف ، حتى أنه لما طلبه ليخرج من السجن ، اشترط أن يتم تحقيق أولاً في سبب سجنه ، والتحقيق في قصة النسوة اللاتي قطعن أيديهن ، حتى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم علق على ذلك مشيدا به ، ثم بعد أن تمت تبرئته ، واعترفت النسوة بطهارته { حَسَّ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ }<sup>(١)</sup> وقالت امرأة العزيز عنه : { أَلَنْ حَصَّصَ الْحَقُّ أَنَا رَوْدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ }<sup>(٢)</sup> ولما قال له الملك : { إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ }<sup>(٣)</sup> قال له يوسف : { أَجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلَيْمُ }<sup>(٤)</sup> .

(١) سورة يوسف ، الآية (٥٢) .

(٢) سورة يوسف ، الآية (٥٢) .

(٣) سورة يوسف ، الآية (٥٤) .

(٤) سورة يوسف ، الآية (٥٥) .

وبذلك أصبح ليوسف الكلمة العليا في الأرض (أي الدولة التي عاصمتها في هذا الوقت مصر) قبل أن يطلق اسم العاصمة بعد ذلك على الدولة كلها . والخلاصة أن يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ : لم يكن له غريم سواء في بيت العزيز ، ولا في حكم مصر .

الاستعمال الثاني : للفعل مَكَّن مع لام التفرغ :

● ﴿ وَقَالُوا إِن نَّبِيعَ أَهْدَىٰ مَعَكَ نُنْخِطِفُ مِنْ أَرْضِنَا أَوْلَمَ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجَبِّي إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (٥٧) (القصص) .

إن قريشًا تعلم أنه الحق ، لكن في تحججها لعدم الإيمان قالت ، ويقال إن القائل الحرث بن عثمان بن نوفل بن عبد مناف : نحن نعلم أنك على الحق، ولكننا نخاف إن اتبعناك وخالفنا العرب أن يتخطفونا من أرضنا ونحن قليلون ، فرد الله عليهم بما يفحهمهم : بأنه بينما الناس تتقاتل ويقتل بعضهم بعضًا ، ويفار عليهم ، ويتعرضون للنهب ، كانت قريش آمنة بحرم الله ، فلا تتعرض لغارة ، ولا يسفك دماء في أرضها ، ولا يفار عليها . أي أنهم بالله لم يضيعوا ، بل حفظوا .

ولهذا وضع لام التفرغ لأن هذا التمكين لم يكن له مثيل ، فقريش لم يكن ينافسها أحد في هذا التمكين ، هي وحدها ، فكأن الله أفرغ الكون من الأمان إلا لهم . فقوله ( أَوْلَمَ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا ) أي لم يكن لقريش غريم يهدد لها الحرم .

الاستعمال الثالث : للفعل مَكَّن مع لام التفرغ :

● ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ (٥٥) (النور) .

قوله : ( وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمْ ) هي بشرى بانتصار الإسلام ، وسيادته على الدين كله ، فلا يكون له غريم . وأن يستخلفهم في الأرض كما فعل مع الذين من قبلهم

أي بني إسرائيل ، وأن يثبت الدين ( الإسلام ) ويبدل خوفهم أمناً ، وبعد أن كان المسلمون في بداية الإسلام يصبحون في السلاح ويمسكون فيه ، إذ بعد سنوات قليلة تصفو جزيرة العرب للمسلمين ، ويصبح الإسلام وحده لا ينازعه دين آخر ، وأتباع الأديان الأخرى كانت تعيش تابعة للمسلمين .

فاللام هنا أفادت إفراد هذا الدين بأن يتبوا المكان وحده . وكأن المكان أفرغ من غيره .

أما قوله تعالى :

● ﴿ أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ مَكَّنَّهِمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّنْ لَكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِمْ مِدْرَارًا وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ ﴿٦﴾ (الأنعام) .

جمعت الآية هنا الفعل ( مَكَّن ) في حالين : باللام وبدونها ، لكننا نرى هنا أن اللام هنا ليست زائدة لتعطي معنى التفرغ ، إذ لا يمكن حذفها ليكون ضمير الخطاب مفعول التمكين ، مثل قوله : مكنا له ( ممكن أن نقول مكناها ) وذلك لأن المفعول به هو الهاء المحذوف التي ترجع على التمكين نفسه ، وانظر إعراب ما :

ما نكرة تامة مبنية على السكون في محل نصب مفعول مطلق أي مكناهم شيئاً من التمكين والأحسن إعرابها اسم موصول مبني على السكون في محل نصب صفة لمصدر محذوف مكناهم في الأرض التمكين الذي لم نمكنه لكم<sup>(١)</sup> . فاللام هنا ليست لام التفرغ ، لأنه نفي التمكين عنهم ، والنفي إذا نفي الأدنى نفي بداهة التمكين الأعلى منه . فلا تمكين لهم بغريم ولا يدون غريم ، فالمفعول هو الهاء المحذوفة ، أي مكناهم تمكيناً لم نمكنه لكم .

الاستعمال الرابع : للفعل مَكَّن مع لام التفرغ :

(١) إعراب القرآن للدعاس (١/ ٢٩٠)

﴿ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِي فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ ﴾ (٦) (القصص).

استعمل لام التفرغ (وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ) لم يقل (ونمكنهم في الأرض) بل وضع لام التفرغ ليقطع بعدم وجود غريم لهم. أما الأرض فهي الدولة التي كانت عاصمتها في ذلك الوقت مصر في عهد موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ أثناء صراعه مع فرعون آخر ملوك الهكسوس ومصرعه وجنوده في اليم، وبذلك لم يبق لبني إسرائيل غريم، وقد أورث الله كنوز فرعون وملئه لبني إسرائيل:

﴿ فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنَ فِي الْمَلَأِينَ حَاشِرِينَ ﴿٥٣﴾ إِنَّ هَؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ ﴿٥٥﴾ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَادِرُونَ ﴿٥٦﴾ فَأَخْرَجْنَاهُمْ مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٧﴾ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٥٨﴾ كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿٥٩﴾ ﴾ (الشعراء).

فبزوال فرعون وجنوده وانهيار دولته مما سيمهد لأهل البلاد الأصليين في جنوب البلاد بقيادة أحمس أن يطردهم ويستعيد الأرض بعد أن أنعم الله عليهم ودمر جيش الغريم، فجاءوا إلى عاصمة فرعون ليستولوا عليها غنيمة باردة بعد أن فاز بنو إسرائيل بكنوزه: وانظر بعد أن قال على الكنوز (كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ) سيقول على الزروع: وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخِرِينَ: (أحمس ورجاله):

﴿ وَأَتْرَكَ الْبَحْرَ رَهْوًا إِنَّهُمْ جُنْدٌ مُّعْرِفُونَ ﴿٢٤﴾ كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿٢٥﴾ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٢٦﴾ وَنَعْمَةً كَانُوا فِيهَا فَكَاهِينَ ﴿٢٧﴾ كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخِرِينَ ﴿٢٨﴾ ﴾ (السخان).

أي أن الله بعد أن دمر فرعون، أصبحت مملكته مستباحة، وقد أورث الله عزَّ وَجَلَّ الكنوز لبني إسرائيل وأعاد الأرض والزروع لأهلها.

فاللام هنا { وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ }<sup>(١)</sup> تكشف أن بني إسرائيل قد أزال الله لهم غريمهم، فكانوا بلا غريم بزوال غريمهم فرعون.

الاستعمال الخامس: للفعل مكن مع لام التفرغ:

(١) سورة يوسف، الآية (٥٢).

﴿ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَءَاتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا ﴾ (٨٤) (الكهف).

استعمل لام التفرغ ، وهي اللام التي تزداد دون حاجة لها ، فهنا تكون وظيفتها إضفاء صفة التفرغ للكلمة . وهي هنا تعطي أقوى صفات ذي القرنين التي تساعد في الوصول إليه ، فهو ملك لا غريم له .

انظر قال مكنا له ، ولم يقل ( مكناه ) .. والفرق بين مكناه ، ومكنا له .. هو أن مكناه أي سيطر فعلاً لكن بعد معركة ، أما مكنا له ، فلا تعني إلا السيطرة بدون أن يواجه عنتاً أو خصماً . الجميع يتوارى ، وليس له إلا قبول الحكم الذي يصدر الممكن له ،

فاستعمال لام التفرغ ليجعل التمکن فارغاً من الغريم ، أي أنه لم يكن مجرد تمكين بعد ظهور على عدو ، بل أفرغ له الدنيا من العدو ، فهو بلا غريم ، لا أحد يقف في وجهه . أي حذفنا كل ما يعوق تمكينه ، فلا غريم له ، فهو ممكن إلى درجة أن لا أحد ينازعه ، نعم لو حاولوا سيفشلون ، لكن حتى المحاولة مستبعدة .

إن الفرق بين ( مكناه ، مكنا له ) : إن مكناه يعني أن يسيطر لكن بعد معاناة أو مقاومة من غريم ، نعم سيتغلب عليه لكن بعد مواجهة ، أما مكنا له : فتعني استتباب الأمر له دون منازعة ، لأنه تم إفراغ الساحة من الغريم الذي يقف في وجهه .

فما دليلنا من الآيات القليلة في سورة الكهف على أن ذا القرنين ليس من النوع الذي يخوض المعارك وينتصر ، ولكنه من النوع اللا غريم ، الذي لا قبل لأحد بجنوده .. ؟؟

يقول الله عَزَّ وَجَلَّ : ﴿ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ ﴾ <sup>(١)</sup> . إن الفعل ( مَكَّن ) متعدد بذاته ، وقد جاء في القرآن متعدياً بذاته ، فلماذا جاء هنا باللام .. ؟؟ وما وظيفة تلك

(١) سورة الكهف . الآية (٢٥١) .

اللام التي لا يحتاجها الفعل .. ٩٩

هذه اللام : هي لام التفرغ ، تدخل على الكلمة التي لا تحتاجها فتضيف لها ملامح التفرغ .. وانظر الاستعمالات الآتية :

وبذلك نرى أَنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ وضع بقوله (مَكَّنَّا لَهُ) قد وضع الصفة الأولى لذي القرنين : هو ملك ملك الأرض دون غريم ، لم يتصد له أحد لفرط قوته ، ويقينية الهزيمة عند الغريم قبل المعركة . وهذا يقتضى استبعاد كل المرشحين الذين رشحوا من قبل البعض ، إذا خاضوا ولو معركة واحدة ، لأن وجود المعركة وإن تغلب فيها ، يعني أنه كان له غريم ، وهذا يعني أنهم يتحدثون عن ذي القرنين الذي ذكره القرآن الكريم بعيداً عن أوصافه التي ذكرها له ، وأولها : أنه بلا غريم ، ولا يخوض معارك لخشية الجميع منه ، ولله دركم ، أيقول الله عَزَّ وَجَلَّ : هو بلا غريم ، وأنتم تقولون : إذن هو فلان الذي حارب كذا .. أيقول لكم الله عَزَّ وَجَلَّ : هو بلا غريم ، وأنتم تقولون إذن هو فلان ذو الانتصارات الساحقة ، ألا تدرُونَ أن انتصاراته دليل على أنه ليس هو ، لأنه مادام خاض معارك ، فإذن له غريم .. وهو من القوة والبأس بحيث لا يجرؤ أحد أن يقف في وجهه .

ولم يقل (مَكَّنَاهُ) بل قال (مَكَّنَّا لَهُ) ، واللام الزائدة هي لام تفرغ ، أي حذفنا كل ما يعوق تمكينه ، فلا غريم له ، فهو ممكن إلى درجة أن لا أحد ينازعه ، نعم لو حاولوا سيفشلون ، لكن حتى المحاولة مستبعدة .

إن الفرق بين ( مكناه ، مكننا له ) : إن مكناه يعني أن يسيطر لكن بعد معاناة أو مقاومة من غريم ، نعم سيتغلب عليه لكن بعد مواجهة ، أما مكننا له : فتعني استتباب الأمر له دون منازعة ، لأنه تم إفراغ الساحة من الغريم الذي يقف في وجهه .

وبذلك نخلص أن ذا القرنين كان راسخاً ، ولا غريم له . وسأل الشعراوي : لكن

لماذا مكناه ؟ وأجاب : لأنه مأمون على تصريف الأمور وفق منهج الله، ومأمون على ما أعطاه الله من إمكانيات<sup>(١)</sup>.

وبالله عليكم أسألكم : من في ملوك الدنيا قاطبةً وصل إلى التمكن دون معارك ؟؟ ليس إلا سليمان عليه السلام . ولم لا ؟ وهذا القرآن يصف مكونات جيشه :  
 { وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ وَالطَّيْرِ }<sup>(٢)</sup> . إن شياطين الجن نفسها كانت منقادة له : { وَالشَّيْطَانُ كُلُّ بَنَاءٍ وَعَوَاصٍ }<sup>(٣)</sup> .

{ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ } . فلم يقل مكناه ، ليجعل التمكن فارغاً من الغريم . وسوف تجد فارقاً بين مكناهم في الأرض .. وبين مكنا له في الأرض : فالأولى تصفوله الأرض لكن بعد تغلبه على الغريم ، أما الثانية فهو من القوة بحيث يتوارى منه الغريم ، فلا يقف في وجهه أحد .

(١) الشعراوي . ج ١٤ . ص ٨٩٨١ .

(٢) سورة النمل ، الآية (١٧) .

(٣) سورة ص ، الآية (٣٧.٢٨) .

## ١٥- إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ :

الكلمة قابلة للإضافة بذاتها ، لكن مع ذلك فصل القرآن بينها وبين ضمير المضاف بلام التفرغ ، وذلك ليكشف دوام العداوة ، نرى ذلك عند بيان العداوة بين الشيطان والإنسان :

إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ <sup>(١)</sup> :

كلمة عدو قابلة للإضافة بذاتها ، فيمكن أن تقول عدوك ، وقد وردت كلمة عدو في القرآن الكريم مضافة دون لام { عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ } <sup>(٢)</sup> ، { تُرْهَبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ } <sup>(٣)</sup> ، { قَدْ أَبْغَيْنَاكُمْ مِّنْ عَدُوِّكُمْ } <sup>(٤)</sup> ، { لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ } <sup>(٥)</sup> ، لكن عداوة إبليس لآدم وذريته عداوة مختلفة ، عداوة سرمدية ، يتفرغ فيها إبليس تفرغاً تاماً لإغواء بني آدم . فهو يعمل هذه المهمة بعدد ساعات كل يوم ، لهذا تكررت اللام في عداوة إبليس ، وتحذير الله لنا منه : { إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ } <sup>(٦)</sup> فلم يقل إنه عدوكم ، إنه عدوكم ، ذلك لأن إبليس لا يتخذون بني آدم عدواً فحسب ، بل لا هم له إلا أن يصل بالإنسان إلى جهنم ، ولا يمل ولا يكل .

• **هذا عدوك** : حاسد لا يتمنى لك الخير ، وربما يوردك في مشاكل بعض المرات .

• **هذا عدوك** : أنت شغله الشاغل ، ترك أمور حياته من أجل الانتقام منك .

(١) سورة طه . الآية (١١٧) .

(٢) سورة الأعراف . الآية (١٢٩) .

(٣) سورة الأنفال . الآية (٦٠) .

(٤) سورة طه . الآية (٨٠) .

(٥) سورة الممتحنة . الآية (١) .

(٦) سورة البقرة . الآية (١٦٨) . والآية (٢٠٨) . وسورة الأنعام . الآية (١٤٢) . وسورة يس . الآية (٦٠) وسورة

الزخرف . الآية (٦٢) .

الكلمة قابلة للإضافة بذاتها ، لكن مع ذلك فصل القرآن بينها وبين ضمير المضاف بلام التفرغ ، وذلك ليكشف دوام العداوة ، نرى ذلك عند بيان العداوة بين الشيطان والإنسان :

• ﴿ قُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوُّكَ وَلِزَوْجِكَ ﴾ (١١٧) (طه).

فلم يقل ( عدوك ، أو عدوكما ) وأثبت لام التفرغ ليكشف أن تلك عداوة سرمدية ، وأن إبليس قد تفرغ كلية لأداء تلك المهمة ، فهو يعمل على إيقاع بني آدم في اليوم كل لحظات اليوم بحمية يحسد عليها .

وقد تكررت اللام مع كل عداوة يقصد بها إبليس :

• ﴿ وَلَا تَتَّبِعُوا خُطْوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴾ (١٣٨) (البقرة).

• ﴿ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا آدَمُ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴾ (٦٠) (يس).

• ﴿ وَلَا يَصِدَّتْكُمْ الشَّيْطَانُ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴾ (٦٢) (الزخرف).

• ﴿ أَفَنَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا ﴾ (٥٠) (الكهف).

• ﴿ وَلَا تَتَّبِعُوا خُطْوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴾ (٢٠٨) (البقرة).

• ﴿ وَلَا تَتَّبِعُوا خُطْوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴾ (١٤٤) (الأنعام).

وقد اجتمع الأمران : استعمال اللام وعدم استعمالها مع كلمة عدو في آية واحدة في سورة فاطر :

• ﴿ إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴾ (٦) (فاطر).

فوضع اللام أولاً ( لَكُمْ عَدُوٌّ ) ولم يضعها ثانياً ( فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ) فوضع اللام لأن إبليس هو المتفرغ لتلك العداوة ، فعند التعبير عن موقفه السرمدية في العداوة أثبت لام التفرغ التي تعطيه تلك الدعامة ( التفرغ للعداوة ) ، لكن عند التعبير عن

الإنسان وهو لا يعادي إبليس بنفسه تفرغ إبليس له حجب اللام ، لأن الله لا يريد منك أكثر من أن تضعه في موقفه العداوة ، بينما كثير من بني الإنسان يتخذونه وذريته أولياء ، فرب العزة يطلب من الذين آمنوا أن يتخذوه عدواً ، أي أنهم لا يتخذونه ، فهو لا يطلب منهم التفرغ للعداوة ، لكنه يطلب وجود العداوة ، فلا يمكن أن تكون عداوته لهم جبلية وهم يتخذونه ولياً .

. لهذا ترى أن المفارقة في إثبات اللام وحجبها هو المعبر عنه ، فإن كان التعبير عن إبليس وهو متفرغ للعداوة ، أثبت اللام ، وعند التعبير عن الإنسان المنصرف عن العداوة ، لم يثبت اللام ، فلا مطمع إلا في أن يفعل العداوة لا دوامها .

• ﴿وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ ﴿٦﴾﴾ (الأحقاف).

• ﴿إِنْ يَتَّقُوا اللَّهَ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءً وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِالسُّوءِ وَوَدُّوا لَوْ

تَكْفُرُونَ ﴿٢﴾﴾ (المتحنة).

فلم يقل ( كانوا أعداءكم ) بل وضع لام التفرغ لئيب أنه يوم الحشر يتحولون إلى أعداء دائمين ، ولو كانت العداوة دائمة فلا يتخللها نقطة ليست منها ، والأمر نفسه لأهل الباطل لما يتمكنوا من المسلمين هنا يظهرون على حقيقتهم ، ويخرجون عداوتهم الدائمة .

وانظر عند الحديث عن فرعون ، فهو عدو لبني إسرائيل ، لكنه بالنسبة لله عزَّ وَجَلَّ وموسى ، ليس عدواً فحسب ، ولهذا يستعمل معهما اللام ليثبت المغايرة :

فعند التعبير عن العداوة بين فرعون وبني إسرائيل لا يستعمل اللام : { عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَهْلِكَ عَدُوُّكُمْ }<sup>(١)</sup> ، { يَبْنِي إِسْرَائِيلَ قَدْ أَنْجَيْنَاكَ مِنْ عَدُوِّكَ }<sup>(٢)</sup> ، لكن انظر لما كان الحديث عن العداوة بين الله وموسى وفرعون : { يَا خُذْهُ عَدُوًّا لِّي وَعَدُوًّا لَّهُ }<sup>(٣)</sup>

(١) سورة الأعراف . الآية (١٢٩) .

(٢) سورة طه . الآية (٨٠) .

(٣) سورة طه . الآية (٣٩) .

فلم يقل يأخذه عدوي وعدوه ، لأن فرعون مستحق أن يعادى من الله ورسوله بشكل دائم .

وعند التعبير عن رجل عادي من قوم فرعون بالنسبة لموسى عَلَيْهِ السَّلَامُ لم يضع اللام : { فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَذَا مِنْ شِيعَتِهِ وَهَذَا مِنْ عَدُوِّهِ فَاسْتَغْنَتْهُ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ }<sup>(١)</sup> لكن في اليوم التالي يستصرخه الذي من شيعته مرة أخرى ، فيقول له موسى (إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ) ، وهمَّ موسى بالبطش به هذه المرة ، ولذلك عدل القرآن عن كلمة ( عدو ) واستعمل ( عدو لهما ) وقد تسأل كيف يكون الإسرائيلي الذي قيل عنه بالأمس من شيعته ، يعبر عنه القرآن بكلمة ( عدو لهما ) ؟ وأقول لك ولا يصلح أيضاً أن نعبر عن الهكسوسي بأنه عدو لهما ، وقد عبّر القرآن عن هكسوسي الأمس الذي وكزه موسى بأنه عدوه فحسب ، فلا مبرر لزيادة اللام في أمرين كلاهما واحد ، فالمغايرة في الاستعمال تستوجب المغايرة في الأشخاص ، ففي رأينا أنه لا يمكن أن يكون الهكسوسي ، فما الهكسوسي بالأمس إلا عدو فحسب لموسى ، وما الهكسوسي اليوم إلا عدو فحسب بدون لام . إذن لا بد أن الإسرائيلي الذي نصره موسى بالأمس عبّر القرآن عن ظاهره (من شيعته) فلما تاب موسى وتعهد أنه لن يكون للمجرمين نصيراً ، لا يمكن أن يكرر فعلة الأمس مرة أخرى مع الرجل نفسه ، ولا يمكن أن يحاول البطش بالهكسوسي من أجله ، وقد تبين له أمره ، ووضوح أمره لموسى هو ما جعل موسى يقول : إنك لغوي مبين . إذن موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ لا يستقيم الأمر أن يتوب ويتعهد ثم يأتي في اليوم التالي ويكرر الفعلة التي تاب عنها ، ولا يمكن أن يعرف حقيقة الذي من شيعته ثم ينتوي أيضاً البطش بالآخر من أجله ، هذا كلام لا يعقل ، إنما أراد موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ أن يبطش هذه المرة بالذي من شيعته ، لأنه علم أنه غوي مبين .

وهنا سينصلح أمر موقف موسى ، ويكون منطقيًا ، فاللا منطقي أن يتوب

(١) سورة القصص ، الآية (١٥) .

ويتعهد ألا يكون ظهيراً للمجرمين أي أن الإسرائيلي كان في نظره مجرمًا وكان هو ظهيراً له ، وقد تعهد ألا يكرر ذلك ويكون للمجرمين ظهيراً :

• لقد وصف موسى فعلته في القضاء على الهكسوسي :

قَالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ

• ثم قال موسى لربه :

قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي

• فغفر ربه له وأبلغه بذلك فقال موسى له شكرًا على هذا الغفران :

رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِلْمُجْرِمِينَ

• أي أنه اعتبر أن فعلة الأمس كان مظهرة للمجرمين ، وتعهد في شكره لربه ألا يكررها ، لكنه برغم ذلك أصبح في المدينة خائفًا يترقب أن يعرفوا أنه من قتل الهكسوسي ، وهو يعلم عن فرعون تظاهرة بالعدل .

• وهو على هذه الحال : إذا بالذي استنصره بالأمس ( الذي اعتبره موسى مجرمًا ، وتعهد ألا يكون له ظهيرًا ) يكرر استصراخه بموسى ، يريد منه أن يكرر فعلة الأمس ، ويقتل له الهكسوسي كما قتل زميله بالأمس ، وهنا يتجه موسى إليه ، ويقول له :

إِنَّكَ لَعَوِيٌّ مُبِينٌ

• وأراد أن يبطلش به ، لأنه اكتشف أنه العدو الحقيقي ، فقال له :

أَتُرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ إِنْ تُرِيدُ إِلَّا أَنْ تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ

وهكذا سمع الهكسوسي ما يكشف غموض جريمة الأمس ، ولما كان موسى لا

ينتوي أن يفعل معه شيئاً فقد مضى وأبلغ قومه بالقصة .

القصة هكذا مستقيمة ، لكن تظل هناك عدة أسئلة :

كيف يكون الإسرائيلي ( عدوا لموسى وللهكسوسي في وقت واحد ) ؟ وكيف تستقيم اللام مع الإسرائيلي ، في حين لا تستقيم مع الهكسوسي نفسه ؟

والحقيقة أن اللام لا تستقيم مع الهكسوسي ، لأن موسى لن يكون عدواً سرمدياً لهم ، بل سيأتيهم بالدين بهدف هدايتهم . ولو آمن فرعون لآمنوا ، فلذلك كما قلنا قوم فرعون عدو ، لكن فرعون نفسه عدو له . وقد عدل القرآن عن استعمال اللام مع الهكسوسي الأول ، فلا يستقيم استعمالها مع الهكسوسي الثاني . أما كيف تستقيم مع واحد من بني إسرائيل ؟ حتى يصبح مثل فرعون ، والشيطان ( اللذين استعمل معهما القرآن لام التفرغ ) وها هو يستعملها مع ثالث هو غوي بين إسرائيل .

أما الإجابة فلأنه غوي بني إسرائيل ، الذي هو عدو لموسى عَلَيْهِ السَّلَامُ ، ولغيره ، إنه السامري صاحب فتنة العجل فيما بعد ، ويكون منطقياً أن يعبر الله عن فرعون بأنه عدو لموسى يوم انتشال تابوت موسى من اليم أي قبل ظهور عداوته ، ثم يعبر عن السامري بأنه عدو لموسى أي قبل ظهور عداوته . فالله الذي يعبر وهو يعلمنا بما هو حقيقة فيما بعد .

والسامري هو الذي استنصر موسى بالأمس ، فنصره موسى بوكز الهكسوسي ، ففضى على الهكسوسي ، وعلم موسى أن مستنصره هذا شيطان ، وقال عنه هذا من عمل الشيطان يقصد السامري ، ولهذا لم يضع اللام ، وهي المرة الوحيدة التي لم توضع اللام في العداوة الإبليسية لأنها ليست عداوة إبليسية ، الكلام هنا عن المستصرخ : السامري ، وقد رآه شيطاناً ، وقال عنه : إنه عدو مضل مبين .

وفي الغد استصرخه مستنصر الأمس السامري ، الذي أيقن موسى حقيقته وأنه مجرم ، وأنه عدو مذل مبين . لذلك قال له : إنك لغوي مبين ، وهم أن يببطش به .

والسامري في رأينا هو صورة مستنسخة من الدجال ، ولهذا لما يفعل فتنته ، ويصنع العجل لبني إسرائيل ستجد غضبة موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ على الجميع :

- فقد ألقى ألواح التوراة {وَأَلْقَى الْأَلْوَحَ} <sup>(١)</sup> .
- وأخذ بتلايبب أخيه هارون يجره : {وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ} <sup>(٢)</sup> .
- ونسف العجل في البحر : {وَأَنْظُرْ إِلَى إِلْهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَنْهَرِقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنْسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفًا} <sup>(٣)</sup> .
- ونزل عقاب بني إسرائيل أن يقتلوا أنفسهم {وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَى بَرِّكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بَرِّكُمْ} <sup>(٤)</sup> .

• والوحيد الذي لم يعاقب هو السامري ، لأنه من المنظرين ، فقال له :

- ﴿فَاذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَنْ تَقُولَ لَا مِسَاسَ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَنْ يُخْلَفَهُ﴾ <sup>(١٧ طه)</sup> .

وبكون المستصرخ هو السامري : فهو بالنسبة لموسى عَلَيْهِ السَّلَامُ ليس عدواً فحسب ، بل هو عدو أبدي ، يليق به وضع لام التفرغ . فإن آمن الهكسوسي بعد ذلك ، يكون السامري عدواً للثنتين ( موسى وهو ) .

وبذلك نرى أن لام التفرغ وضعت مع عدواة إبليس ، وفرعون ، والسامري ، أما

(١) سورة الأعراف . الآية ( ١٥٠ ) .

(٢) سورة الأعراف . الآية ( ١٥٠ ) .

(٣) سورة طه . الآية ( ٩٧ ) .

(٤) سورة البقرة . الآية ( ٥٤ ) .

الرابع الذي وضعت لعداوته لام التفرغ : فكانت الأصنام في عين إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ : { فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ }<sup>(١)</sup> ، وكذلك أبوه بإصراره على الكفر ، واكتشافه أنه برغم كل اجتهاده في هدايته أبى إلا الكفر ، وعبادة الشيطان : { يَتَابَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ }<sup>(٢)</sup> ، ولذلك عند الحديث عن عداوة أبيه لله أثبت لام التفرغ : { فَلَمَّا بَيَّنَّ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ }<sup>(٣)</sup> .

وحجبت اللام في العداوة المجتمعية لأنها غير دائمة مثل : { يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ }<sup>(٤)</sup> ، { وَأَعِدُوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْحَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ }<sup>(٥)</sup> ، { فَأَيُّدْنَا الَّذِينَ ءَامَنُوا عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَاصْبِحُوا ظَاهِرِينَ }<sup>(٦)</sup> ، لكنه يضع اللام في العداوة الدينية : { فَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ عَدُوٌّ لَكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ }<sup>(٧)</sup> ، عند التعبير عن العدو : ، أو عدوكما ) وأثبت لام التفرغ ليكشف أن تلك عداوة سرمدية ، وأن إبليس قد تفرغ كلية لأداء تلك المهمة ، فهو يعمل على إيقاع بني آدم في اليوم كل لحظات اليوم بحمية يحسد عليها .

وتكرر زيادة اللام مع الفعل كان في أكثر من موضع :

● ﴿ فَالْنُقْطَةُ ۚ ءَالَ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ﴾ (القصص) .

وفي الثانية (لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا) فلم يقل (ليكون عدوهم) وزاد اللام : لأن موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ سيتفرغ لتلك العداوة. ولأنه سيكون سبباً في حزن دائم لآل فرعون . وفي الثالثة (إِنَّا كُنَّا لَكُمْ بَعَاءً) : الكبراء استكبروا في الدنيا ففضحوا في الآخرة ببيان عجزهم ، فالضعفاء يطلبون منهم المساعدة على تخفيف النار التي

(١) سورة الشعراء . الآية (٧٧) .

(٢) سورة مريم . الآية (٤٤) .

(٣) سورة التوبة . الآية (١١٤) .

(٤) سورة الممتحنة . الآية (١) .

(٥) سورة الأنفال . الآية (٦٠) .

(٦) سورة النساء . الآية (٩٢) .

(٧) سورة الأعراف . الآية (٢١) .

انتهوا إليها بسببهم . والتبع : جمعاً صله مصدر لذلك يستوي فيه الواحد والجمع . والتعبير به للدلالة أنهم جميعاً كانوا كالواحد في التبعية .

● ﴿ إِنَّ الْكَافِرِينَ كَانُوا كَأَنَّ كَوْمًا وَاحِدًا ﴾ (النساء) .

لم يقل ( كانوا أعداءكم ) فاستعمل المفرد مكان الجمع ، وزاد اللام .. فأما استعمال المفرد للتعبير عن الجمع فذلك لأن الكافرين في عداوتهم للمسلمين متحدون ، وقد تساوا جميعاً في تلك العداوة إلى حد أن أصبح المجموع في حكم الفرد . أما اللام فتفيد تفرغ الكافرين لتلك العداوة .

وقد تكرر الأمران معاً : التعبير بالأعداء بالمفرد (عُدُو) وباللام ..

● ﴿ فَاتَّبَعْنَاهُمْ عُدُوًّا مِّنَ الْغَيْبِ ﴾ (الشعراء) .

الأعداء جمع ، لكنهم بالنسبة لإبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ متحدون ، لا يفرق في عداوته بين واحد والآخر ، واستعمل اللام للتفرغ ، فمهمة إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ ألا ينشغل عن تلك الآلهة ، وسيظل ديدنه معها كما فعل مع أصنام قومه عندما حطمها جميعاً .

وتأخرت اللام لثبات هذا التفرغ ، لأن تأخرها يعني أن تكون صفة ملازمة ، ولو تقدمت لكان حال وقتية .

## الحرف الثاني

# تاء الاستحضر

الاسم المؤنث في القرآن الكريم قاعدته الإملائية هي الكتابة بالتاء المربوطة ، لكن القرآن الكريم يغير في رسم التاء بين شكلين أحدهما الصورة المعتادة أي بالتاء المربوطة بصفتها اسماً ، وواحدة بالتاء المفتوحة خروجاً عن القاعدة الإملائية عمداً لتحقيق غرض ما .

وإن كان قانون العربية يفرق في القواعد الإملائية بين الاسم والفعل في استعمال التاء ، فتكون التاء مفتوحة للفعل ، ومغلقة للاسم ، وجاءت استعمالات القرآن في أغلبها تتبع ذلك ، لكن ثمة بعض الأسماء في القرآن وردت مفتوحة التاء مخالفة لقاعدة التاء المربوطة للاسم فلا بد أن هناك قانوناً ما يحكم هذه المخالفة المتعمدة .

والقانون الذي افترضناه هو أن الاسم إذا تلبس الحداثية ، وحدث تراسل بينه وبين الفعل ، واكتسب صفة الحدوث ، فكأنه مستحضرٌ أمامك كما الفعل ، فقد شابه الفعل في الحدوث لكليهما ، وهنا يستحق أن تفتح التاء لإضافة ملمح الحضور الحداثي للاسم فكأنه كما الفعل لذلك يفتح التاء كالفعل .

تاء التانيث حرف زائد ، يدخل على الحرف فيكون تاء مفتوحة مثل قولنا :  
 لات ، ويدخل على الفعل الماضي فيكون تاء ساكنة والفعل قبلها يبنى على الفتح ،  
 ويدخل على الاسم فيكون تاء مربوطة مثل قولنا : مسلم = مسلمة . ويفرق النحاة  
 بين ثم الحرفية وثم الاسمية عند وضع التاء فإذا كانت ثم الحرفية فالتاء مفتوحة  
 : ثم ، وإذا كانت ثم الاسمية فالتاء مربوطة : ثمة .

التاء المربوطة إذن هي علامة تانيث الاسم ، وقد استخدم القرآن الكريم سبع  
 عشرة اسماً مؤنثاً لكنه فتح التاء بدلاً من ربطها ، فهناك كلمات لم تأت إلا بتاء  
 مربوطة مثل :

- مَرَضَاتٍ .
- فَطَرَتْ .
- أَبْنَتْ .
- وَمَعْصِيَتٍ .
- غَيَّبَتْ .
- جَمَلَتْ .

وهناك كلمات وردت بالشكلين معاً :

- رَحِمَتْ ، رَحْمَةٌ .
- كَلِمَةٌ ، كَلِمَتٌ .
- أَمْرَأَةٌ ، أَمْرَأَتٌ .
- سُنَّتْ ، سُنَّةٌ .
- لَعْنَتْ ، لَعْنَةٌ .
- بَقِيَّةٌ ، بَقِيَّتٌ .
- شَجَرَتْ ، شَجْرَةٌ .
- فُرَتْ ، فُرَةٌ .
- جَنَّةٌ ، وَجَنَّتْ .
- يَبْنَتْ ، يَبْنَةٌ .
- نَعِمَتْ ، نِعْمَةٌ .

وكان المعدل التكراري للاسماء السابقة المخالفة للقاعدة الإملائية :

١. ثماني كلمات تكررت مرة واحدة فحسب :

- فِطْرَتَ
- أَبْنَتَ
- يَقِيَّتُ
- شَجَرَتَ
- قُرَّتُ
- وَحَنَّتُ
- جَمَلْتُ
- يِنْنَتِ

٢. ثلاث كلمات تكررت مرتين :

- وَمَعْصِيَتِ
- لَعْنَتَ
- غَيْبَتِ

٣. كلمة واحدة تكررت أربع مرات :

- مَرَضَاتِ

٤. كلمتان تكررتا خمس مرات :

- كَلِمَتُ
- سُنَّتُ

٥. كلمتان تكررتا سبع مرات :

- رَحِمَتَ
- أُمَّرَأَتُ

٦. كلمة واحدة تكررت إحدى عشرة مرة :

- نَعِمَتَ

وبذلك يكون العدد الإجمالي للأسماء المؤنثة التي خرجت في رسمها عن الرسم المألوف لكتابة تاء التانيث تاءً بصفتها أسماء سبع عشرة كلمة بمعدل تكراري ثلاث وخمسين كلمة .

وقد وردت منها ست كلمات بالتاء المفتوحة فحسب هي :

- وَمَعْصِيَتِ
- مَرَضَاتِ
- فِطْرَتَ
- أَبْنَتَ
- غَيْبَتِ
- جَمَلْتُ

بينما وردت إحدى عشرة كلمة بالرسمين ، أي تأتي الكلمة بالتاء المربوطة والتاء المفتوحة معاً وهي :

- نِعَمَتَ ، نِعْمَةً .
- أَمْرَأَةً ، أَمْرَأَتُ .
- كَلِمَةً ، كَلِمَتُ .
- رَحِمَتَ ، رَحِمَةً .
- سُنَّتُ ، سُنَّةٌ .
- لَعْنَتَ ، لَعْنَةً .
- بَقِيَّةً ، بَقِيَّتُ .
- شَجَرَتَ ، شَجَرَةً .
- قُرَّةً ، قُرَّتُ .
- جَنَّةً ، وَجَنَّتُ .
- بَيْنَهُ ، بَيْنَتِ .

ولاشك أن كتابة الكلمة بالشكلين هي اختبار كبير للقانون المطروح ، لأن أصدق القوانين هو القانون الذي يستجيب له الضدان . فإن نجح الفرض المقترح في الضدين في أحد عشر مثلاً فهو قانون يتجاوز وجهة النظر إلى الحقيقة .

والمبحث بالطبع يبحث في سر الكتابة بالتاء المفتوحة للاسم الذي يختص بالتاء المربوطة ، وكأن السؤال المطروح : الاسم تكتب تأوّه بالتاء المربوطة فلماذا في هذه الكلمات كتب بالتاء المفتوحة ؟

ولعلنا في حاجة أولاً إلى معرفة القاعدة الإملائية في كتابة التاء ، والأمر يتلخص في خمس قواعد :

- الحرف تكتب تأوّه مفتوحة ، سواء التاء أصلية فيه مثل (ليت) أو زائدة للتأنيث مثل (لات) أو ثمت .
- جمع المؤنث السالم وملحقاته :علامته بالتاء المفتوحة ، مسلمات ، أولات .
- جمع التكسير الذي مفرده بقاء يكتب بتاء مفتوحة مثل أصوات (مفرده بقاء مفتوحة : صوت) ، أبيات (مفرده بقاء مفتوحة : بيت) ، بينما لو كان المفرد ليس بقاء مفتوحة فيكتب في الجمع بقاء مربوطة مثل (قضاة : لأن مفردها بلا تاء : قاضي) وذلك لأن قضاة لو كتبت بالتاء المربوطة لشابهت الفعل .